

دكتور عبد القادر حسين
رئيس قسم البلاغة والنقد - جامعة الأزهر

طبعة مزيدة منقحة

١٩٩٧م / ١٩٩٨م

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة المؤلف

فَنّ البَدِيع

مقدمة

احتل البديع قديمًا مكانة مرموقة النقاد والبلاغيين ، لما رأوا فيه من جمال يضفيه على العبارة النثرية ، أو القصيدة الشعرية ، كما وجدوا ألوانًا من البديع تزخر بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فحفلوا به ، وانجذبوا إليه فى توشية أشعارهم وتزيين خطبهم دون كلفة أو قصد ، فتسنم ذروة البلاغة ، حتى عده قوم من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، لما له من أثر فى جلال المعانى وجمال الألفاظ . ولكن الشعراء فى عصر التجديد فتنوا به وأفرطوا فيه ومنحوه كل اهتمامهم ، سواء كان المعنى يفتقر إليه أو يستغنى عنه ، فوقعوا فى كثير من العيوب التى أدى إليها التكلف والتعسف . وبدلاً من أن يكون البديع وسيلة لتحلية الألفاظ وتحسينها ، أو طريقًا لكشف المعانى وإبرازها ، صار مسلكًا وعرًا يؤدى إلى الإغراب والتعمية ، أو الإفساد والعقم .

ونسج أهل الشعر والنظم على هذا المنوال ، وأضاف العلماء إلى ألوان البديع ألوانًا تعد بالمئات حين أطلقوا على كل معنى اسمًا من أسماء البديع ، فانحرف عن مساره ، وأصبح عبئًا ثقيلاً فى نظر النقاد المحدثين يجب التخفف منه ؛ بل التخلّى عنه والتخلص منه .

والحق أن البديع له مكانته المرموقة التى ظفر بها عند النقاد الأقدمين ، إذا أحسن استخدامه وجاء عفوًا بلا تكلف .

وأرى أن العلة فى فساد البديع التى ظهرت فى العصور المتأخرة لا ترجع إلى البديع ذاته ، وإنما ترجع إلى سوء استخدام الشعراء لألوانه والإفراط فيها ، حتى صار البديع عندهم مطمحًا لا يعدلون عنه ، ولا يرجون سواه . وهذا ما أثبتناه فى الباب الأول من الكتاب .

أما الباب الثانى فقد عكفت فيه على ذكـر المحسـنات البديعيـة ، مستشـهدًا لكل محسن بأمثلة غزيرة من القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ وعيون الشـعر، حتى يتبين بوضـوح أمام الأبصـار أن البديـع دون ريب قيمـة جماليـة كـبرى ، لا تخطئها الأذن المرهفة ، ولا يغفل عنها الوجدان الصادق .

وقد أضفـت إلى الطبعـة الأولى كثـيرًا مـن موضوعـات علـم البديـع رأيتهـا ضرورية لاكتمال الكتاب بكل ما يفيـد القـارئ من فنـون البديـع ، وبيـان أثـره فى النفس والمشـاعر ، وقـد ذيلـت الكتـاب بفهـارس قرآنيـة ، وأحـاديث نبويـة ، وأبيات شعرية حتى يسهل على القارئ العثور على بغيته من أقصر طريق .

والله الموفق

مدينة نصر ١٠ / ٨ / ١٩٩٧م **د. عبد القادر حسين**

البَابُ الأوّلُ

البَدِيع عِندَ النقّاد



(١)

إن لغتنا العربية – وخاصة عندما تُصاغ فى صورة شعرية – تتميز بالجمال والكمال ، وتمثل قمة الإبداع اللغوى ، لما تحويه من غنى عظيم فى مفرداتها ، واتقان محكم فى تراكيبها ، وزخرف أخّاذ فى أشكالها ، وجمال موسيقى فى جرسها .

السجع فى النثر ، والقافية فى الشعر ، والفواصل فى القرآن ، تنبئ عن التماثل بين الكلمات ، والمشاكلة بين الألفاظ . هذا التماثل فى الألفاظ ، والانسجام فى العبارات يشهد بموسيقية اللغة ، ويدل على جمالها الأكيد .

وأبراز ما ينبئك عن جمال اللغة العربية وموسيقيتها ما فيها من ألوان بديعية معنوية أو لفظية ، عن طريق الكلمة وأختها ، أو الكلمة وضدها فى سياق واحد ، تلحظ الأضداد فى الطباق والمقابلة ، كما تلحظ المماثلة فى الجناس والمشاكلة ، فى سياق ينساب فى سلاسة لا يشوبه تنافر ، ولا يعتريه اضطراب .

إن عبقرية العرب تتمثل فى لغتهم وأساليبهم . الجاحظ يصف لغة العرب ، وحديث الأعراب مزهوا فيقول : " ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنق ولا ألذ فى الأسماع ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويمًا للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء ، والعلماء البلغاء(١) .

وحين أراد العرب أن يفاخروا بعروبتهم فى مواجهة الشعوبية ، ويتغنوا بأمجادهم ، عثروا على ضالتهم فى الألفاظ فرصدوها ، وفى الأشعار فجمعوها .

فن القول ، وجمال النطق ، وحسن العبارة ، يشرف به العربى ، فيتبوأ المكانة المرموقة ، ويفتح الطريق أمامه للمال والجاه ، وتقبل عليه الدنيا بعزها

---

(١) البيان والتبيين – الجاحظ ١٤٤/١ ط الخانجى .

وسلطانها . ولحن القول ، وسوء النطق ، ورداءة الصياغة ، تصكّ المسامع ، فيهون أمر المتكلم ، وتوصد الأبواب دونه فلا تقضى حاجته .

عمر بن عبد العزيز الحاكم العادل يهتز طربًا لنطق جميل ، ويعبس وجهًا للحن بغيض ، فيجود فى الأولى التذاذًا بما يسمع ، ويمسك فى الثانية ازدراء لما يقال : " إن الرجل ليكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن ، فأرده عنها ، وكأنى أقضم حب الرمان الحامض ، لبغضى استماع اللحن ، ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها فيعرب ، فأجيبه إليها ، التذاذًا لما أسمع من كلامه "(١) والمراد بالإعراب هنا ليست قواعد النحو فحسب ، بل الإفصاح الذى يؤدى إلى لذة السامع لما يقال .

ليس هذا شأن عمر بن عبد العزيز وحده ، وإنما هو موقف العربى على إطلاقه ، يتذوق ألفاظ اللغة وتراكيبها ، ويفتن بجمالها وسحرها ، فكلما حلى الكلام وعذب ، التصق بالأسماع ، واتصل بالقلوب ، وخصوصًا إذا ترجم المعنى بلفظ شريف ، وعبر عنه بكلام رشيق .

ومن ثم كان لزاما على العربى أن يدقق فى اختيار ألفاظه، وأن يتأنق فى تركيب عباراته ، وأن يخلع عليها من الحسن ما يرفع من شأنها ويعلى من قدرها، فنراه يردد النظر فى الكلام بعد أن يفرغ منه، ويشرع فى تهذيبه وتنقيحه ، نظمًا كان أو نثرًا ، فيغير ما يجب تغييره ، ويصلح ما يتعين إصلاحه ، ويطرح ما يتصف بالغلظة والغرابة ، فإذا وصف كلامه بالمهذب المنقح ، علت رتبته ، وإن كانت معانيه غير مبتكرة .

زهير بن أبى سلمى كان معروفًا بالتنقيح والتهذيب ، وله قصائد تعرف بالحوليات ، " فقد روى أنه كان يعمل القصيدة فى شهر واحد ، وينقحها ويهذبها فى أحد عشر شهرًا "(٢) ، لا ليضمن سلامتها من العيب فحسب ، بل ليخلع عليها الحسن ، فتبدو فى أجمل صورة وأبدع مثال .

---

(١) تجديد الفكر العربى د. زكى نجيب محمود ص ٢٣٢ ط دار الشروق .

(٢) خزانة الأدب – ابن حجة الحموى ص٢٣٦

كما يرى عن الفرزدق أنه كان يمر عليه زمان وقلع ضرس من أضراسه أهون عليه من قول بيت واحد من الشعر ، ويحذر من تقصير الألفاظ ، وينصح بتوخى حسن النسق عند التهذيب ، حتى يكون الكلام آخذًا بعضه بأعناق بعض ، ويدعو إلى تكرار التهذيب ، ومعاودة التنقيح ، وإمعان النظر ، فإذا تأبى عليك لفظ ، فاتركه حتى يأتيك عفوًا ، وإذا جمحت بك عبارة ، فدعها حتى تنقاد إليك طوعًا .

وحسن النسق من محاسن الكلام ، وهو : أن يأتى المتكلم بالكلمات من النثر ، والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحمًا سليمًا مستحسنًا وتكون جملها ومفرداتها متسقة متوالية ، إذا أفرد منها البيت قام بنفسه ، واستقل معناه بلفظه ، كقول شرف الدين القيروانى :

جاور عليًّا ولا تحفل بحادثة ... إذا ادّرعت لا تسأل عن الأسَلِ(١)
سل عنه ، وانطق به ، وانظر إليه ، تجد ... ملءَ المسامع ، والأفواه ، والمقَلِ

فالحظ حسن النسق ، واستيعاب هذا التقسيم ، ومراعاة النظير بين كلمات المسامع والأفواه والمقل ، وكلها تدخل تحت ما يسمى بعلم البديع .

(٢)

البديع ليس ترفًا فى الأسلوب الأدبى ، أو حلية تكون بمثابة الفضول التى يستغنى عنها ، حتى يكون مكانه فى المؤخرة من عناصر العمل الفنى ، ولا هو يأتى بعد استيفاء البلاغة لعلمى المعانى والبيان ، بل منزلته لا تقل شأنًا عنهما ، وأستميح القارئ العذر إذا قلت : إن مرتبته فى المقدمة منهما ، لأنى أخشى أن أتهم بسوق الكلام دون دليل .

وليس الحديث هنا بالطبع عن كل ما ذكره علماء البديع من محسنات ، فكثير منها لا يستحق الذكر ، وكثير منها طرحه أفضل من الإبقاء عليه - كما

---

(١) ادرعت : غذت فى المسير وأظلمت ، والأسل : الرماح .

سنوضح فيما بعد - وكثير منها يجنى على فن القول ، فيستغلق بسببه المعنى ، وتضيع فيه البهجة ، خاصة إذا وصم بالتكلف وعشوة التعسف ، فيقتسر فى الكلام اقتسارًا . ليس هذا هو المراد بالبديع الذى عرفه المتقدمون من العلماء ، وإنما عرفوا البديع الذى يأتى موضعه ؛ ليقوم بدوره فى أداء المعنى ، فيقف جنبًا إلى جنب مع الصور البيانية ، وترتيب مواضع الكلمات .

القرآن فيه كثير من صنوف البديع : كالجناس ، والطباق ، والمقابلة ، واللف والنشر ، والعكس والتبديل ، وغيرها مما يعرفه دارسو البلاغة ، هذه الأنواع البديعية لم تكن فضولاً من القول ، ولم تأت لمجرد الزينة ، وإنما دعاها المعنى ، دعاها دون غيرها من الألفاظ ، فإذا استقرت فى مواضعها ، كان للمعنى جلاء وبيانًا ، وللكلام فضلاً وتأثيرًا ، وأمثلة هذه المحسنات البديعية من القرآن غنية عن الذكر والبيان .

صاحب الطراز (ت ٧٤٩هـ) يدرك قيمة البديع ومنزلته بين علوم البلاغة، فيجعله رحيق علمى المعانى والبيان الذى تتركز فيه الحلاوة ، ويتجمع فيه السكر ، فهو خلاصة الخلاصة ، وصفو الصفو ، يستهل حديثه عن علم البديع فيقول : " اعلم أن هذا الفن من التصرف فى الكلام مختص بأنواع التراكيب ، ولا يكون واقعًا فى المفردات ، وهو خلاصة علمى المعانى والبيان ، ومصاص سكرهما ... وعلم البديع هو تابع للفصاحة والبلاغة ، فإذن هو صفو الصفو ، وخلاص الخلاص ، وبيان ذلك : هو أن العلوم الأدبية بالإضافة إلى حاجته إليها ، وترتبه عليها على خمس مرات، كل واحدة منها أخص من الأخرى ، وهو الغاية التى تنتهى إليه كلها "(١) .

ويعنى بالعلوم الأدبية الخمسة :

علم اللغة ، وعلم التصريف ، وعلم الإعراب ، وعلم المعانى ، وعلم البيان. فكل منها يأتى فى المرتبة التى تعلو سابقه ؛ لخصوصيته يفتقدها الأول ، فإذا انتهينا إلى البديع - وهو ما لا نصل إليه إلا بعد إحراز ما سلف من العلوم الأدبية - حزنا خلاصتها وصفوها ونقاءها فهى : - العلوم الأدبية الخمسة - وصلة إلى البديع ، وهو منتهى أمرها وغاية شوطها ، إذ (ليس وراء عبادان قرية) .

---

(١) الطراز - العلوى ٣٤٧/٣ ط المقتطف .

(٣)

من هذا المنطلق لمنزلة البديع ، تفنن الشعراء فى صبغ أشعارهم بالصبغة البديعية ؛ كما تفنن الكتاب فى توشية عباراتهم بالزينة اللفظية ، ليقولوا شعرًا يُطرب ويعجب ، أو يكتبوا نثرًا يبهج ويخلب ، كانت هذه غايتهم : أن يقولوا كلامًا حسنًا بديعًا فى أسلوب شائق جميل ، يأتى عفوًا بلا تكلّف ، فاجتمعت لديهم صور بيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، يقف بإزائها محسنات بديعية من جناس وطباق ومقابلة ، بعضها يؤازر بعضًا ، فأطلق عليهم النقاد شعراء البديع ، كما أطلقوا على أدائهم فى التعبير : اسم البديع ، وأصحبت السمة المميزة لعصر التجديد الذى استهله بشار ، ومسلم ، وأبو نواس ، ومن بعدهم أبو تمام ، هى البديع الذى يشمل الصور البيانية والمحسنات البديعية دون تفرقة بين هذه وتلك ، فكلاهما بديع ، وكلاهما يخلع الحسن على الألفاظ الشعرية ومعانيها ، فتغير بذلك وجه الشعر تغييرًا كاملاً .

وطبيعى أن هذا البديع لم ينشأ فى هذا العصر من لا شئ ، وإنما كان معروفًا من قبل ، يأتى عفوًا بلا تكلف ، وقد أورد ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) نماذج مختلفة من هذا الأسلوب البديعى(١) القائم على تزيين الشعر بالمحسنات الكثيرة ، لا من أقوال الشعراء فى العصر العباسى الذين حملوا لواء التجديد فى الشعر ؛ بل يعرض أيضًا نماذج من الشعر الجاهلى والإسلامى وأقوال الصحابة ؛ بل من أحاديث الرسول ﷺ والقرآن الكريم ، مما يدل على أن البديع فى حدّ ذاته - سواء قلّ أو كثر - ليس فضولاً يمكن الاستغناء عنه ، ما دام يستعمل فى موضعه اللائق به من الكلام، أما إذا تكلفه القائل واقتسره اقتسارًا ، سواء كان قليلا أو كثيرًا ، فهو حينئذ لايشوّه جمال الكلام فحسب، وإنما أيضًا يفسد المعنى ، ويصيب التركيب بالخلل .

وحين أقول : إن البديع لا يشين الكلام إذا استعمل قلة أو كثرة لا ألقى الكلام على عواهنه ، فأنا أحيلك على باب الإبداع ، وما قاله ابن أبى الأصبع المصرى

---

(١) انظر كتاب البديع لابن المعتز - باب التجنيس على سبيل المثال ط دار العهد الجديد .

(ت ٦٥٤هـ) فى كتابه " بديع القرآن " عن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْـدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هود ٤٤ قال : إنه استخرج من هذه الآية واحدًا وعشرين ضربًا من البديع وعددها : سبع عشرة لفظة(١) ، وذكر منها المناسبة التامة فى ابلعى وأقلعى، والمطابقة اللفظية فى ذكر السماء والأرض ، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حال نقصه، وحسن النسق فىعطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولاً فأولاً ، والتسهيم ؛ لأن من أول الآيـة إلى قوله تعالى : ﴿ وأَقْلِعِي ﴾ يقتضى آخرها ، والانسجام ، وهو : تحـدّر الكلام بسهولة وعذوبة سبك ، مع جزالة اللفظ ، كما ينسجم الماء القليل مع الهواء .

ويعقب على ذلك بأن فى كل لفظة بديعًا وبديعين؛ لأنها كما تقدم سبع عشرة لفظة تضمنت واحدًا وعشرين ضربًا من البلاغة ، سوى ما يتعدد من ضروبهـا. وغنى عن البيان أن مفهوم البديع عنده كلمة تشمل علوم البلاغة كلها من معان وبيان وبديع.

وليس ابن أبى الأصبع وحده الذى استخرج هذه الكثرة من ضروب البديـع فى الآية القرآنية ، فكل من تناول هذه الآية من علماء البلاغـة ألقـى فيهـا بدلـو ، فقـد وصـف الزمخشرى (ت ٥٢٨هـ) هـذه الآيـة فقـال : " إن علمـاء البيـان استفصحوا هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم "(٢) .

وهذا هو النويرى (ت ٧٣٣هـ) يتحدث عن الإبـداع وهـو : " أن يؤتـى فى البيت الواحد من الشعر ، أو القرينة الواحدة من النثر بعدة ضروب مـن البديع بحسب عدد كلماته أو جمله ، وربما كان فى الكلمة الواحـدة المفـردة ضربـان مـن البديع ، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة ، فليس بإبداع "(٣) فهو ينقـل كـلام ابن أبى الأصبع الذى ذكرناه سابقًا فى الآية القرآنية .

---

(١) بديع القرآن - ابن أبى الأصبع المصرى ص٣٤٠ - ٣٤٢ ط نهضة مصر .

(٢) الكشاف ٣١١/٢ ط الاستقامة .

(٣) نهاية الأرب - النويرى - ١٧٥/٧ - ٧٧ ط دار الكتب .

فالحمد أو الذم قد يصحب الإفراط أو الاقتصاد فى طلب البديع ، فليس فى الإفراط ذمّ مطلق ، ولا فى الاقتصاد حمد دائم ؛ وإنما المعيار بنهوض الطبع بما يُحمّل به من جهة ، أو الجرى وراءه واقتناصه لمجرد إظهار البراعة والغرابة من جهة أخرى .

إذن فالكثرة التى تفسد البديع هى الكثرة المتكلفة التى يلجأ إليها صاحبها ليريك مدى مقدرته فى رصف المحسنات بعضها بجوار بعض ، وإن لم تحمل فى وضعها من بنية الكلام شيئًا ذا بال ، فنشعر أننا إزاء شئ غثّ لا فائدة فيه .

وليس هذا التكلف - أيًا كانت صوره - مفسدًا للبديع وحده ؛ بل هو مفسد للبيان أيضًا ، وما صور التعقيد المعنوى " والمعاظلة : وهى فاحش الاستعارة "(١) إلا من هذا القبيل .

ومفسد للمعانى أيضًا حين نقدم أو نؤخر فى غير موجب للتقديم أو التأخير فيؤدى إلى انغلاق المعنى ، كما هو الشأن فى التعقيد اللفظى ؛ ومفسد للأدب كله ؛ لأنه موات ألفاظ ليس وراءها حياة .

إن البديع الذى بدأ على يد ابن المعتز فى ثمانية عشر لونًا : خمسة من البديع وثلاثة عشر من المحسنات ، تضم فى جملتها صور البيان ، زاد زيادة مفرطة حتى بلغ على يد ابن أبى الأصبع مائة وستة وعشرين لونًا فى كتابه " تحرير التحبير " بعد أن أضاف إليها بعض أبواب المعانى ، ولا أحدثك عن البديعيات التى يتضمن كل بيت منها محسنًا من محسنات البديع ، وإزاء كل بيت المحسّن الذى يشير إليه ، كبديعية صفىّ الدين الحلّى (ت ٧٥٠هـ) التى تضمنت مائة وخمسين محسنًا ، ولا عن بديعية عز الدين الموصلى (ت ٧٨٩هـ) الذى زاد على سابقه شيئًا من اختراعه ، ولا عن بديعية ابن حجّة الحموى (ت ٨٣٧هـ) الذى صنف عليها شرحًا مطولاً ، وغيرهم " من الذين وجدوا فى كل صيغة بها شيئًا من الغرابة محسنًا بديعيًا ، أطلقوا عليه اسمًا من الأسماء ، مما أحال الكلام فى البديع ومحسناته

---

(١) الصناعتين - أبو هلال العسكرى ١٦٣ ط عيسى الحلبى .

إلى صورة غثّة ضررها أكثر من نفعها ؛ لأنها خلطت بديعًا مزيفًا كثيرًا بالبديع الحقيقى ؛ بل إن هذا البديع المزيف هو الذى كان يستأثر باهتمامهم "(١) .

(٤)

إذا عدنا مرة أخرى إلى ما كانت عليه منزلة البديع عند الأدباء والنقاد فى العصر العباسى نرى الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) يجعله مقصورًا على العرب ويعده من خصائص العربية ، وبسببه فاقت لغة العرب غيرها من اللغات ، وعلى هذا الدرب سار ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فى عدّه المجاز من خصائص العربية - وإن كان يعنى بالمجاز طرق القول ومآخذه من بيان ومعان ، وخروج بالكلام عن مقتضى الظاهر ، وبسبب هذا المجاز الذى تتميز به العربية لا يقدر أحد من المترجمين نقل القرآن إلى لغة أخرى ، بخلاف غيره من الكتب السماوية التى يمكن ترجمتها ، وعلل ذلك بأن العجم لم تتسع فى المجاز اتساع العرب(٢) . فكان أقل شططًا من الحاجظ حين زعم أن البديع مقصور على العرب ، ومهما يكن من شئ فإن الشاعر إذا ضمّن شعره شيئًا من البديع ، استحق الثناء ، وحاز قصب السبق ، فالبديع عند الجاحظ " مقصور على العرب " ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأرْبَتْ على كل لسان ، والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتّابى يذهب شعره فى البديع "(٣) فالبديع - إذن - عند الجاحظ من مميزات الشعر ، وليس من سوءاته ، وهو يثنى على أصحاب البديع ، ولا ينتقص من قدرهم ، وهذا يؤكد أن البديع فى ذاته مرغوب إذا أحسن استخدامه ، لأنه يعجب السمع ويستهوى النفس ، ويصبح مصدر جمال قوى رائع . فكانت هذه الكثرة فى استخدام المحسنات البديعية سببًا لعناية النقاد بالبديع ، ومثار الجدل حول أدب المحدثين والقدامى .

فالمحدثون يستخدمون البديع الذى سبقهم إلى استخدامه القدماء ، ولكن المحدثين أكثروا منه منذ مسلم بن الوليد ، وبشار ، وأبى نواس ، إلى أن أفرط

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ انظر ص٣٥٨ - ٣٦٧ د. شوقى ضيف - دار المعارف .
(٢) تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة ص١٦ ط عيسى الحلبى .
(٣) البيان والتبيين ٤/٥٥

فى استخدامه أبو تمام ، حتى صار شعره مثار خصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث ، وذلك " أن جلّ الأدباء والنقاد رأوا فى الافتنان فى الحلية اللفظية المجال الأكبر للتجديد ، إيمانًا منهم بأن الأولين استغرقوا المعانى ، أو أتوا على معظمها ، ولم يتركوا إلا ما استهين به أو صعب الوصول إليه ، فلم يبق أمام المحدثين شىء يولعوا به إلا البديع والحلية اللفظية ، فكان الإبداع والإغراب منحصرًا فى هذا الميدان ، وتبعهم النقاد ما بين مفتون به وساخط عليه "(١) .

والجديد شىء مألوف فى تاريخ الأدب ، فلكل عصر أدبى مميزاته وخصائصه ، ولكل شاعر سماته وملامحه ، فإذا استنفدت قيم جمالية راهنة ، ظهرت قيمة جمالية جديدة يحملها لنا أديب أو شاعر ، وليس ضروريًا أن يكون الجديد أفضل من القديم ، ولكن لا بد من الجديد الذى يأتى فى أثر القديم ، هذا الجديد الذى أصبح شغل الأدباء والشعراء والنقاد فى العصر العباسى ، حتى أصبح السمة المميزة لمدرسة التجديد أو مدرسة البديع . " فعندما انتهى قرض الشعر إلى المحدثين ورأوا افتتان الناس بالبديع واستغرابهم له ، أولعوا باستخدامه وإيراده ، إظهارًا للاقتدار ، وذهابًا على الأغراب ، فمن مفرط ومقتصد ، ومحمود فيما يأتيه ومذموم ، على حسب نهوض الطبع به ، أو لكمال البراعة والالتذاذ بالغرابة "(٢) .

(٥)

قدامه بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) يرى أن ألوان البديع هى البلاغة ، وفى ذروة الحسن منها " وأحسن البلاغة : الترصيع ، والسجع ، واتساق البناء ، والاستقامة ، وعكس ما نظم من بناء ، والاستعارة ، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام ، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم .. والمبالغة فى الرصف بتكرير الوصف ، وتكافؤ المعانى فى المقابلة ، والتوازى ، وإرداف اللواحق ، وتمثيل المعانى(٣) .

---

(١) الوساطة - القاضى الجرجانى ص٢٠٨ ط القاهرة .

(٢) مقدمة شرح ديوان الحماسة - المرزوقى - ص ٩٩ ط تونس .

(٣) جواهر الألفاظ ص ٣ ط محيى الدين - قدامه .

والحق أن كلمة البديع فى ذلك العصر لم تكن قد اتخذت المعنى الإصطلاحى الذى ساد فيما بعد واستقر الرأى عليه فى كتب المتأخرين عند السكاكى والخطيب وأصحاب الشروح ، وأصبح ملازمًا لها حتى اليوم ، وإنما كانت تعنىعدة أشياء منها : الإكثار من استخدام الصورة ، والإكثار من استخدام المحسنات ، والميل بالمعانى القديمة إلى وجه جديد من الاستعمال مغاير لما جرى عليه العرف . فكلمة البديع تعنى التجديد بصفة عامة ، سواء أكان التجديد فى الصياغة أو التجديد فى المعانى بقلبها أو تغييرها أو تحسينها .

هذه الوجوه البديعية التى أجملها قدامه يتمثل فيها الإيقاع الصوتى الذى يكسب فن القول جمالاً ومتعة ، ويضفى عليه الرونق والبهجة ، لما فيه من تساوى أجزاء الكلام ، وتوازى المقاطع الصوتية ، وكأنها من جنس واحد ، كقول أبى المُثَلّم(١) :

لوكان للدهرِ مالٌ كان مُتْلِدَهُ	لكان للدهرِ صخرٌ ، مالَ ُقنْيان
آبى الهضيمةِ ، ناب بالعظيمة ، متـْ	ـلافُ الكريمةِ ، جَلْد غيرُ ثُنْيان
حامى الحقيقة ، نسّالُ الوديقة ، معْـ	ـتاق الوَسيقة لاسِقْط ولا وانِ
هبّاط أودية حمّالُ ألْوية	شهّادُ أندية ، سِرحانُ فِتيان
يعطيك ما لا تكادُ النفس تُرسِلُه	من التّلاد وهوبٌ غيرُ منّان

فأجزاء البيت متساوية مسجوعة ، راعى فيها الشاعر التوازن الصوتى بين الكلمة وأختها ، " وأكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى ، وإنما يحسن إذا اتفق فى البيت موضع يليق به ، فإنه ليس فى كل موضع يحسن ، ومن الشعراء القدماء والمحدثين من قد نظم شعره كله ووالى بين أبيات كثيرة منه ، منهم أبو صخر الهذلى ، فإنه أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه إنه غير متكلف ... والرسول ﷺ كان يتوخى فى كلامه مثل ذلك، ويورد قدامه الأحاديث النبوية التى يذهب فيها إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضًا ،

---

(١) انظر نقد الشعر ص ٤٩ - قدامه - ط الخانجى .

منها : (خَيْرُ المالِ سِكّةٌ مأبورة ومُهْرةٌ مأمورة) فقال : مأمورة من أجل مـأبورة ، والقياس : مؤمّرة ، وإنما عدل عن القياس لاتباع الكلمـة أختهـا فـى الـوزن . وإذا كان هذا مقصودًا فى الكلام المنثور ، فاستعماله فى الشعر الموزون أقمن وأحسن(١) .

وفى حديثه عن التكافؤ(٢) ، ويعنى به كل صور التقابل ، نراه ينحى ناحيـة عملية ، ليبين أثره فى تجديد الشعر ، ويسوق بيت بشار :

إذا أيقظتْـك حـروبُ العِـدا   فنبّـه لهـا عُمـرًا ثـمَ نَـمْ

" فنبه ونم " تكافؤ ، ولـه أثر فى تجـديد الشـعر قوى ، فإنـه لو قـال مثـلاً : " فجرد لها عمرا " لم يكن لهذه اللفظة من الموقع مع نم ما لنبّه .

ومثل : " كدَر الجماعة خير من صفْو الفُرقة " ، لأنه لما قال : كدر ، قال : صفو ، ولما قال : قال : الجماعة ، قال : الفرقة .

هذه المقابلات قد نظمت بحيث يوضع بعضها بـإزاء بعـض ، وتتـوازن كـل كلمة مع أختها ، فيكون للكلام وقع فى السمع وحلاوة فـى النفـس ، فـإذا تجـرد الكلام من هـذا التـوازن الحـادث مـن المطابقـات ، تجـرد مـن الجـودة ، وإن كـان صحيحًا . فابن دريد ينشد لبعض الشعراء :

طرقتْـك عـزّةُ مـن مَـزارٍ نـازحٍ   يـا حسـنَ زائـرةٍ وبُعْـدِ مَـزارِ

نلحظ عدم التطابق بـين " حسـن زائـرة وبعـد مـزار " ممـا أفضـى إلى نفـرة الإيقاع وعدم الجودة ، " يقول ابن دريد : لو قال : " يا قرب زائرة وبعـد مـزار " لكان أجود ، وكذلك هو لتضمنه الطباق "(٣) .

وكلما تعـددت المقابلات بين شـطرى البيـت الواحـد ، زاد الإعجـاب بـه ؛ لحسـن جرسـه فى السمع ، فإذا اكتملت المقابلات ، اكتمل الحسـن؛

---

(١) انظر نقد الشعر ص٤٦ - ٥٠

(٢) انظر نقد الشعر ص ١٤٦ وجواهر الألفاظ ص ٧

(٣) الصناعتين - العسكرى - ص ١٣٩ ط عيسى الحلبى .

لتماثل الإيقاع بين جميع أجزاء الشطرين ، فالناس كانوا يعجبون ببيت البحترى :

وأمّة كان قبحُ الجور يُسخطها　　　دهرًا فأصبح حسنُ العدل يُرضيها

لأنه جمع بين ثلاث مقابلات ، حتى جاء أبو الطيب فزاد عليه مع رشاقة الصنعة بقوله :

أزورهُمْ وسوادُ الليلِ يَشفعُ لى　　　وأنثنى وبَياضُ الصبحِ يُغرِى بى(١)

وقد أتى المحدثون من التكافؤ بأشياء كثيرة ، وهو مع أهل الحصيل والرويّة فى الشعر ، أولى منه بطباع القائلين على الهاجس بحسب ما يسمح به الخاطر .

(٦)

مدرسة التجديد وعلى رأسها أبو تمام ، كانت صاحبة مذهب فى الشعر ، ولها أسلوب فريد تميزت به عن غيرها ، ولسنا بصدد تقييم هذا الأسلوب وبيان ما فيه من الجودة أو الرداءة ، ولكن هذه المدرسة لم تحاول التجديد فى مضمون الشعر وجوهره ، وإنما حاولت التجديد فيما يسمى بالبديع ، أى فى طريقة الصياغة الشعرية ، فتمردت على المألوف ، وأفرطت فى توشية الشعر بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ، فخرجت عن مدرسة عمود الشعر ، التى يمثلها البحترى ، وأدت هذه المدرسة إلى ظهور علم جديد ، هو علم البديع على يد ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) .

وكلمة عمود الشعر ما تزال مبهمة على كثير من القراء ؛ لعدم تحديد معناها فى الأذهان ، رغم أن النقاد يرون معيار الجودة فى القصيدة الشعرية رهنًا بما يتحقق من ذلك العمود . فما معنى عمود الشعر ؟

إنه محصلة لسبع خصائص يجب أن تتوافر ، وبقدر توافرها يكون نصيب الشاعر من التقدم والإحسان . وهى كما قال المرزوقى (ت ٤٢١هـ) :

---

(١) أبو الطيب المتنبى ما له وما عليه -الثعالبى - ص ٣١ ، ٣٢ ط ١٩١٥

" أن يكون المعنى صحيحًا ، وأن يكون اللفظ جزلاً مستقيمًا ، وأن يكون الوصف صادقًا ، وأن يكون التشبيه قريبًا ، وأن تكون الاستعارة مناسبة ، وأن تكون الأجزاء ملتحمًا بعضها ببعض ، وأن تجيء القافية متساوقة مع اللفظ والمعنى على صورة طبيعية لاتكلف فيها "(١) .

هذا الخروج عن عمود الشعر هو الذى أثار كبار النقاد ، وعدوه سببًا لطمس المحاسن ، كالذى نجده كثيرًا فى شعر أبى تمام ، والكلام هنا للقاضى الجرجانى (ت٣٦٦) - فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل فى كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح فى غير موضع من شعره ... ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب (لاحظ هنا تكلف أبى تمام فى طلب البديع) ولم يرض بهاتين الخلّتين حتى اجتلب المعانى الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ،... فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع ، لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر ... ، فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة ... وتلك حال لا تهتز فيها النفس للاستمتاع بحسن ، أو الالتذاذ بمستطرف ، وهذه جريرة التكلف(٢) .

ورغم أن الجرجانى من النقاد الذين يدينون بتفضيل أبى تمام وتقديمه على غيره من الشعراء ، واعتباره قبلة أصحاب المعانى ، وقدوة أهل البديع ، إلا أنه كان قاضيًا يتبع الحق ويتحرى العدل فيما يحكم به ، فالذى يغيظه من أبى تمام أن يراه متكلفًا فى اجتلاب المعانى الغامضة ، أو فى طلب البديع . فالتكلف فى طلب البديع من الأسباب التى تهجن شعر أبى تمام ، وليس البديع حين يأتى عفوا لا تكلف فيه . " فالتفاضل بين الشعراء عند العرب يكون فى الحرص على عمود الشعر ، واستخدام البديع على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ،

---

(١) مقدمة شرح الحماسة - المرزوقى - ص ٥٩ - ٧٨ ط تونس .

(٢) الوساطة ص ١٩ ط عيسى الحلبى .

ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسئ ، ومحمود ومذموم ومقتصد ومفرط "(١) .

فكما يكون استخدام البديع علة للإساءة والذم ، يكون أيضًا من دواعى الحسن والحمد ، فالعبرة - إذن - فى معالجة البديع وطريقة استخدامه ، وليست العلة فى البديع نفسه فهذا مصيب ، وهذا مخطئ ، وهذا حسن ، وهذا ردئ .

والآمدى (ت ٣٧٠ هـ) يلحظ أن البحترى يكثر من استعمال البديع فى شعره ، إلا أنه لم يفارق عمود الشعر وطريقته المعهودة ، فانفرد بالحسن فى العبارة ، والاستقامة فى المعنى . " فقد حصل للبحترى أنه ما فارق عمود الشعر ، وطريقته المعهودة ، مع ما نجده فى شعره من الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة وانفرد بحسن العبارة ، وحلاوة اللفظ ، وصحة المعانى ، وحتى وقع الاجماع على استحسان شعره ، وروى شعره استحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف مذاهبهم "(٢) .

أما أبو تمام فقد كان يتكلف البديع فيخرج إلى المحال ، ولا تكاد تخلو له قصيدة واحدة يكون فيها مخطئًا أو مُحيلاً .. أو مفسدًا للمعنى الذى يقصده بطلب الطباق ، والتجنيس ، أو مبهمًا بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم(٣) .

وثمة نص واضح صريح ينقله الآمدى عن ابن مهرويه يبين أن المعيار فى قبح البديع أو حسنه إنما مرده إلى التكلف فى طلب البديع أو عدم التكلف ، فإذا جاء عفوًا غير مستكره ، ضمن لصاحبه التقدم على سائر شعراء عصره : " فإن أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، وإن أبا تمام تبعه فسلك فى البديع مسلكه فتحير فيه ، كأنهم يريدون إغراقه فى طلب الطباق والتجنيس

---

(١) الوساطة ص ٣٤ ط عيسى الحلبى .

(٢) الموازنة - الآمدى -١/ ١٨ ، ١٩ ط دار المعارف .

(٣) الموازنة - الآمدى - ١/ ٥٠

والاستعارات ، وإسرافه فى التماس هذه الأبواب وتوشيح شعره بها ... ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ، ولم يوغل فيها ، ولم يجاذب الألفاظ والمعانى مجاذبة ، ويقتسرها مكارهة ، وتناول ما يسمح به الخاطر .. لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين "(١) .

فأبو تمام كان مفتونًا بالبديع شديد الغرام بالطباق والتجنيس والمماثلة ، يسعى إليها جاهدًا ليرصع بها شعره ، ولا يبالى بعد ذلك بشئ ، فيستوى عنده التعبير عن المعنى بلفظ ضعيف أو لفظ قوى ، فكان شأنه شأن من يعمل التطريز فى ثوب خلق ، فيتملس الزخارف والمحسنات ليجلى بها المعانى القديمة المستهلكة والتى دارت على ألسنة الشعراء من سابق إلى لاحق . فالكلف فى البديع وتتبعه وطغيانه على الأسلوب يطمس معالم المعنى ، أو يخفيه ، أما استعمال الزينة بقدر وفى موضعها ، فلا يزيد وجه الكلام إلا نضارة وحسنًا ، والآمدى يفرد عدة صفحات لما جاء فى شعر أبى تمام من قبيح الجناس - وأذكر الجناس على سبيل المثال - فيقول : " واعتمده الطائى ، وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه واقتصر على بعض أمثلته المتجانسة المستعذبة اللائقة بالمعنى ، لكان قد أتى على الغرض ، وتخلص من العيب "(٢) . ثم يعمم الحكم على البديع بالقبح إذا أحاط بالكلام من أقطاره كافة فيقول : " والشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه ، فإن مجاهدة الطبع ، ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف إلى سوء التكلف وشدة التعمل ... ؛ لأن لكل شئ حدًا إذا تجاوزه المتجاوز سمى مفرطًا ، وما وقع الإفراط فى شئ إلا شانه ، وأحال إلى الفساد صحته ، وإلى القبح حسنه وبهاءه "(٣) .

ومن نافلة القول أن أشير إلى فئة من النقاد أعجبتهم طريقة أبى تمام فى طلبه البديع على إطلاقه ، فانتصروا لمدرسة التجديد ولأبى تمام ،

---

(١) الموازنة ١/١٣٥

(٢) الموازنة ١/٢٦٧

(٣) الموازنة ١/٢٤٤

واستحسنوا منه البديع ، وعدوه سببًا فى إحالة المعنى القديم إلى شئ مستطرف حديث .

يقول الصولى (ت٣٣٥هـ) " فلو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة ، لوجب أن يصرف عن أبى تمام ، لكثرة بديعه ، واختراعه ، واتكائه على نفسه ...ومتى أخذ معنى زاد عليه ووشحه ببديعه وتمم معناه فكان أحق به "(١) .

فإذا كنا نجد قومًا يعيبون على أبى تمام إفراطه فى استعمال البديع ، ويتهمونه بالإحالة وإفساد الشعر كالآمدى فى الموازنة ، فإننا نرى الصولى فى أخبار أبى تمام يدفع عنه هذه التهمة ويبين فضله ؛ لاستعماله البديع فى المعانى القديمة المألوفة ، فيحيلها إلى شعر جديد ينسب إلى أبى تمام وحده ، ويبرئ ساحته من تهمة السطو ، لأنه أحق به من غيره .

فاستعمال البديع له من النقاد من يؤيده ، وله من يفنده ، ولكن التأييد والتفنيد لم يلمس جوهر البديع وحقيقته ، وإنما لمس لتكلف والإفراط فيه دون دواع تستوجب استخدامه من جلاء للمعنى ، أو أنس لنفس ، فإذا كان للبديع أثر فى النفس ووقع فى السمع ، كانت الحاجة إليه أوجب والعدول عنه تقصير . فهذا ابن جنى (ت ٣٩٢هـ) يوضح لنا أثر السجع فى ضرب الأمثال ووقعه فى السمع : " ألا ترى أن المثَل إذا كان مسجوعًا ، لذّ لسامعه فحفِظه ، فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به ، ولا أنقت لمستمعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجئ به من أجله "(٢) .

والمرزوقى (ت ٤٢١هـ) يرى فى توشية الشعر بشئ من البديع مشقة وصعوبة على الشاعر البليغ أكثر مما يراها فى الكشف عن المعنى بمختار من اللفظ

---

(١) أخبار أبى تمام – الصولى ص٥٣ ، ١٠٠ط ١٩٣٧

(٢) الخصائص – ابن جنى ٢١٦/١ ط دار الكتب .

يسابق فيه الفهم السمع " فمن البلغاء من يقول : فقر الألفاظ وغررها كجواهر العقود ودررها ، فإذا قام بتحسين نظومها ، راق مسموعها ومضبوطها ، فيموج فى حواشيها رونق الصفاء لفظًا وتركيبًا مما يقبله الفهم ويلتذ به السمع ... ومن البلغاء من ترقى إلى ما هو أشق وأصعب ، فلم تقنعه هذه التكاليف فى البلاغة حتى طلب البديع من الترصيع والتسجيع والتطبيق والتجنيس والعكس والاستعارة ... إلى وجوه أخر تنطق بها الكتب المؤلفة فى البديع ، فإنى لم أذكر هذا القدر إلا دلائل على أمثالها ، ولكل مما ذكرته وما لم أذكره رسم من النفوذ والاعتلاء(١) .

وليس ثمة ما يدعو إلى التأكد من البديع ورشاقته إذا أحسن استعماله ، وقبحه وثقله إذا كان متكلفًا متصنعًا من قول الباقلانى (ت ٤٠٣هـ) حين يعقد مقارنة بين البحترى وأبى تمام(٢) ، فكلاهما يستخدم البديع ويفرط فيه ، إلا أنه حسن عند الأول ، قبيح عند الثانى ، وربما أسرف - يقصد أبا تمام - فى المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها ، حتى استثقل نظمه ، وكان التكلف باردًا ، والتصرف جامدًا ، وأما البحترى فإنه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام ، ويقل التصنع له ، فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنًا رشيقًا ، وظريفًا جميلاً ، وتصنعه للمطابق كثير حسن ، وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلاسة ، فلذلك يخرج سليمًا من العيب فى الأكثر ، ثم يصف البديع بأنه باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وأن القرآن لا ينفك عن فنون البلاغة (البديع) وإذا وضع هذا الموضع كان جديرًا .

(٧)

فإذا انتهينا إلى إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) نراه يصوب بصره إلى المعنى وهو يتناول التجنيس(٣) : فالقبيح من الجناس هو الذى

---

(١) مقدمة ديوان الحماسة للمرزوق ص٣٩ - ٤١

(٢) إعجاز القرآن - الباقلانى ص١١٠ ، ١١٢ ط دار المعارف .

(٣) أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجانى - فصل فى التجنيس ١١ - ٢٥ ط الاستقامة .

لم يزدك على أن أسمعك حروفًا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة . والحسن منه هو الذى يعيد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، لا فرق فى هذا الحسن بين الجناس التام والجناس الناقص ، وبهذا المعيار يعد التجنيس من حلى الشعر ومذكورًا فى أقسام البديع ، ففضل التجنيس مرهون بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده، لما كان فيه مستحسن ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن.

ويبدو أن الشعراء فى عصر عبد القاهر لشدة ولعهم بالبديع قد أفرطوا فى استخدامه ، حتى إن الواحد منهم ينسى أن يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه جمع أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ... كمن ثقّل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها .

وليسمح لى القارئ أن أنقل إليه سطورًا فى هذا المعنى عن موقف عبد القاهر من البديع كتبتها منذ ثلاث عشرة سنة فى رسالتى عن أثر النحاة فى البحث البلاغى(١) : ذكر عبد القاهر ألوانًا من البديع دون أن يخوض فى جميع الألوان التى كانت معروفة وشائعة عند السابقين مثل : التجنيس ، والسجع ، والتطبيق ، وحسن التعليل ، والتجريد ، والمزاوجة ، والتقسيم ، وخصوصًا التقسيم ثم الجمع . ويرى أن البديع يساعد على فضيلة الكلام حين لا يكون متكلفًا خاليًا من الفائدة ، ولا يقصد به غير الزخرف والزينة ، فإذا أتى عفو الخاطر ، أو كان المعنى هو الذى يطلبه ويستدعيه ، فإنه يقرر أنه " يكون أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه ، بل إنه لو رام تركهما - التجنيس والسجع - إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع ، لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه ... ".

---

(١) انظر أثر النحاة فى البحث البلاغى د/ عبد القادر حسين - موقف عبد القاهر من البديع ط نهضة مصر .

والحسن والقبح فى البديع عند عبد القاهر ليس مرده إلى اللفظ ، لأن الألفاظ ليس لها نصيب من الحسن ، وإنما العبرة بالمعنى الذى لا ينشأ إلا عن النظم (الأسلوب) ولذلك فإنه يفرق بين تجنيس قبيح كتجنيس أبى تمام :

ذهبتْ بمذهبِه السماحةُ فالتوتْ   فيه الظنونُ أمَذهبٌ أم مُذْهَبُ

وتجنيس حسن كتجنيس البستى :

ناظِراه فيما جَنَى ناظِراه   أو دَعانى أمُتْ بما أودَعانى

لأن الفائدة ضعفت فى الأول ، وقويت فى الثانى ، ففضيلة التجنيس لا تتم إلا بنصرة المعنى ، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به .

وكما ينكر عبد القاهر التكلف فى البديع والشغف به ، فإنه ينكر أن يتطلبه المعنى ثم عن ذكره ، لأن المعنى هو الذى يقود إليه ويستشرف له ، فإهماله فى هذه الحالة شبيه بتكلفه حين لايدعو إليه المعنى ، فيكون تجنيًا مستكرهًا وسجعًا نافرًا ، فإذا توافرت هذه المحسنات البديعية مع حسن النظم يكون قد قرى الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزيد بكلا الأمرين .

فالبديع - إذن - عند عبد القاهر لايستقل باللفظ ، وإنما يذوب داخل النظم ، إلا أنه يضيف إلى جماله جمالاً ، وتزيد به الفضيلة ارتقاء ، فيعمل عمل السحر فى الكلام ، فإذا هو النمط العالى ، والباب الأعظم الذى لاترى سلطان المزية يعظم فى شىء كعظمه فيه . انتهى .

وإذا أردنا أن نستشهد بأقوال العلماء من النقاد والبلاغيين فى حسن البديع ، لضاق بنا المجال ، وعمدنا إلى الإطالة والتكرار ، وفيما ذكرناه غناء عن كل كلام .

ولكن يكفى أن نحيل القارىء إلى ما قاله الباقلانى فى الفصل الذى عقده " فى ذكر البديع من الكلام "(١) .

---

(١) إعجاز القرآن ص٦٦ ط دار المعارف .

إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع ؟

يعنى بذلك البديع على إطلاقه كما ساد فى عصره من صور بيانية : كالتشبيه والاستعارة والكناية ، ومحسنات بديعية ، كالتجنيس والمطابقة والمقابلة والموازنة ، والغلو والمبالغة ، ورد العجز على الصدر ، وصحة التقسيم ، والترصيع، والعكس والتبديل ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم وغيرها .

فوجوه البديع كثيرة جدًا كما يقول الباقلانى ، ولكنه اقتصر على بعضها فليس من غرضه ذكر جميع أنواع البديع ، ولكنه بعد أن ينتهى من ذكر هذه الوجوه من البديع يعقب على ذلك بقوله :

وقد قدّر مقدّرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه ، يعنى بذلك الرّمانى الذى اعتبر البلاغة (البديع) من وجوه إعجاز القرآن(١) .

وليس كذلك عندنا ، لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها .

فإلى هذه الغاية استطاع البديع أن يتسنم ذروة البلاغة حتى عدّه قوم أنه من وجوه الإعجاز فى القرآن . وانظر إلى أى مدى كان احتفاء العلماء بالبديع ، وإدراكهم لمنزلته التى حفزتهم إلى القول بأنه من دواعى الإعجاز ووجه من وجوهه .

والباقلانى وإن كان يرفض أن يكون البديع - سواء كان صورة بيانية أو محسنًا بديعيًا -وجهًا من وجوه الإعجاز، لأن البديع يمكن التوصل إليه بالتدريب والتعود ، إلا أن البديع عنده باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ، وأن القرآن لا ينفك عن بلاغة العرب ، وإذا وضع فى موضعه كان جديرًا .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن - الرمانى - ص٧٠ ط دار المعارف .

وبعد ، إن الشعر عند العرب صناعة ، ولهذه الصناعة قوانينها التى تتحكم فى الشكل والإطار الخارجى ، فتجعل منه شعرًا جميلاً أو قبيحًا لذلك كان اهتمام العرب بالجمال الشكلى لا يقل عن اهتمامهم بالمحتوى الداخلى ، وحين كان الشعر مرتبطًا بالسمع ، كان اعتماده فى الدراجة الأولى على التناسق والتوازن والتماثل والتطابق الذى هو سبيل إلى التلاؤم ، والتناظر وغيرها ، مما ينطوى تحت لواء شئ واحد يمكن أن نطلق عليه كلمة الإيقاع الموسيقى ، ألا ترى أن الألفاظ فى الأسماع لا يقل وقوعها فى النفس عن الصور فى الأبصار ؟

(٨)

وإذا كان البديع عند النقاد القدامى قد ظفر بهذه الحفاوة البالغة واعتبر دليّلا على كمال البراعة واتقان الصناعة حتى عدَّه قوم من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ، فقد اختلفت الرؤية عند النقاد والدارسين المعاصرين ؛ لأن الشعر لم يعد يكتب لينشد على الخلفاء فى القصور ، أو الجماهير فى الأسواق كما كان فى القديم ، وإنما يكتب ليقرأ ، فنأخذ منه حصيلة فكرية ، أو صورة اجتماعية ، أو شحنة انفعالية مما لا يحتاج إلى تزويق أو تجميل . إن الشعر أصبح صورة ترى ، وليس نغمًا يسمع ، صورًا تتملاّها العين ، ولا يقف بإزائها السمع ، لذلك نظر النقاد المعاصرون للبديع نظرة استخفاف وازدراء على خلاف نظرتهم لعلمى المعانى والبيان . فالبديع " لايخرج عن كونه محسنات لفظية عقيقة ، والاهتمام به كان من الأساليب الرئيسية التى حولت مجرى الأدب العربى كله إلى زخارف لفظية خاوية من كل معنى عميق أو إحساس صادق .

على حين يعتبر علم البيان وسيلة أكيدة من وسائل التصوير الأدبى ؛ بل الخلق الجمالى عن طريق التشبيهات والاستعارات والمجازات ، أى : الصور الأدبية التى تميز الأدب كفن تصويرى عن غيره من أنواع الكتابة التقريرية .

وعلى حين يعتبر علم المعانى دراسة للتراكيب اللغوية ، وطرق الأداء والتلوين الفكرى والعاطفى "(١) .

---

(١) النقد والنقاد المعاصرون – د. مندور ص١٣ ، ١٤ ط نهضة مصر .

وأظن أن هذا القول فيه كثير من التجنى على البديع : فإذا كانت الكتابة التقريرية لا تدخل فى مجال الأدب ؛ لافتقارها إلى التصوير ، الذى هو من خصائص الأدب ، فهى قادرة على الإمساك بزمام التعبير والإفهام ، وذلك قدر يسير من الفضائل المتعددة التى تدخل ضمن دائرة علم المعانى ، وعلم المعانى هو : أحوال اللفظ العربى الذى يعرف به مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال كما يقول علماء البلاغة ، فهو - إذن - لب البلاغة وأساسها ، ولذلك فإن الكتابة التقريرية لا تعطينا شعرًا مميزًا ، أو نثرًا فنيًا ملحوظًا .

حقيقية أن الكتابة التقريرية وعلم المعانى يشتركان فى الإفهام والتعبير عن القصد ، وأخشى أن يسرع إلى خاطرك أن علم المعانى يتعلق بإفهام المعنى والتعبير عنه ، وتقف مهمته عند هذا الحد ،كلا ، بل إن مهمته أبعد غاية من ذلك : مهمته تتحدد فى العلاقات المنظمة بين مجموع الكلمات التى تؤلف البيت من القصيدة ، أو الفقرة من القطعة الأدبية ؛ لأن ترتيب الكلمات على نسق معين يحقق نغمًا لا يخطئه السمع ، ولا يغفل عنه الوجدان . ذلك كان عبد القاهر الجرجانى على إدراك عميق حين لاحظ الحسن الذى يكون مصدره هذه العلاقات بين الألفاظ ، وهو ما يسمى بالنظم ، فموضع الحسن أن تتبع الألفاظ ترتيب المعانى ، والمعانى تتبع فى ترتيبها منطق العقل ، فما يرى العقل وضعه أولاً يعبر عنه باللفظ أوّلا ، وما يرى وضعه ثانيًا يوضع ثانيًا ، فإذا خطر المعنى أولاً فى النفس ، كان اللفظ الذى يدل عليه أولاً فى النطق وهكذا . ومن ثم كان موطن الجمال الفنى فى ترتيب الكلمات والعلاقات بينها . أجل هو جمال لا نستطيع أن نمسك بألفاظه كما فى البديع ، ولكنه جمال يتسلل من العقل فيثرى الوجدان .

كما لاحظ عبد القاهر الحسن فى البديع فقال فى أسرار البلاغة : " إذا توافرت هذه المحسنات البديعية مع حسن النظم - الذى ذكرناه آنفًا - يكون الكلام قد قرى الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين " غاية ما فى الأمر أن الإيقاع والأنغام الصادرة عن النظم خفية داخلية ، وفى البديع جلية

خارجية ، فإذا اجتمع الحسن من كليهما ، استقر فى الوجدان وظهر للعيان دفعة واحدة ، وهذا تمام الحسن وكماله .

ولو كان الشكل قليل الجدوى سواء كان مبعثه ترتيب الكلمات أوالمحسنات ، لما خسر الشعر شيئًا بترجمته إلى لغة أخرى ، أو بتحويله إلى نثر انسلخت عنه خصائص الشعر ؛ لأن الذى يميز الفن عن غيره الشكل ، فلو انهار الشكل ، لم يعد الفن فنًا ، وإن احتفظ بالموضوع الذى يعبر عنه بحذافيره .

وإذا كان وجه الجمال فى عالم المعانى ينكشف فى ترتيب العلاقات بين كلماته على نحو خاص ، والغاية من البديع إضفاء الجمال على الكلام ، فهما يتضافرون معًا على إبراز الإيقاع الداخلى والخارجى للنظم ، إذا كان الأمر كذلك فإن الدهشة لا تعترينا إذا رأينا السيوطى (ت ٩١١ هـ) بعد أن ينتهى من الحديث عن موضوعات علم المعانى ، يذكر " إن كثيرًا منها أوردها جمع من العلماء فى علم البديع ، منهم الطيبى فى التبيان ، وأصحاب البديعيات ، مثل الإيجاز بأنواعه ، والإطناب بأنواعه ، والالتفات والتغليب وغيرها "(١) .

أما التصوير الذى هو من خصائص علم البيان ويميز الأدب عن غيره ، تعطيه التشبيهات والاستعارات والمجازات من خلق جمالى ، فإن علم البديع أقدر على خلق هذا الجمال ؛ لما فيه من تلاؤم فى الألوان كما فى التدبيج أو تماثل فى الألفاظ كما فى الجناس ، أو تضاد فى المعانى كما فى الطباق والمقابلة ، أو تناسب فى العبارات كما فى مراعاة النظير ، ويمكنك أن ترى هذا التوازن والتوافق فى بقية المحسنات البديعية ، " والشعر إنما يختلف عن القول الحقيقى من حيث توضع فيه الكلمات متوافقة فى الموازنة والمقدار كما يقول ابن رشد فى تلخيص كتاب الشعر لأرسطو ، وما دام الشعر مبنيًا على هذه الصور والأشكال ، فلا يكون النظر فيه إلا من جهة البيان والبديع "(٢) .

---

(١) عقود الجمان – السيوطى – ١/ ٢٥١ ط مصطفى الحلبى .

(٢) فى أصول الأدب – الزيات ص ٥٧ – ٥٩ ط ٣

والمحسنات البديعية لا تكون فى يد الأديب الماهر مجرد ألفاظ عقيمة خاوية من كل معنى ، وإنما تتحول على يديه إلى شىء ذى قيمة عظيمة إذا أحسن استخدامها ، وأتى بها لتؤدى دورًا فى إفادة المعنى ، فيزداد الكلام بها شرفًا وفضيلة ، وقد سبق أن أشرنا إلى المقارنة التى ذكرها عبد القاهر بين الجناس الحسن والردئ ، ومتى يكون حسنًا جميلا ، ومتى يكون رديئًا قبيحًا .

ولعل النقاد فى عصرنا الحديث قد زهدوا فى البديع وهاجموا أصحابه ؛ لما انتهى إليه حال الشعر العربى قبل حركة البعث الحديثة على يد البارودى وشوقى وحافظ ممن أنقذوا الشعر العربى من تلك الهوة السحيقة التى تردى فيها منذ عصر العباسين إلى حركة البعث الحديثة " فقد كانت هذه الفترة فترة انحطاط كامل تضخم فيها البديع تضخمًا شديدًا ، وملأ به الكتاب كلامهم ، وحشا به الشعراء أشعارهم مشرئبين بأعناقهم إلى أصحاب البديعيات من أمثال صفى الدين الحلّى الذى ذاعت شهرته فى كل الفترة المتأخرة ، وفى ديوانه قصيدة تضم إحدى وخمسين ومائة صورة من صور البديع ، بل عنده رسائل كل أحرفها مهملة بلا نقط "(١). أو متجهين بأبصارهم نحو أصحاب المقامات ، كمقامات بديع الزمان الهمذانى والحريرى التى انصرفت إلى الأسلوب المصطنع الزاخر بالحلية اللفظية التى لا تعود على المعنى بفائدة تذكر .

العقاد يصف الحالة التى انتهى إليها الشعر العربى من طغيان البديع بأنه " شعر لا يقصد به غير الوزن والإستكثار من محسنات الصنعة ، فملأه الشعراء بالتورية والكناية والجناس والترصيع ... وظهر فى الشعر التطريز والتصحيف والتشطير والتخميس ، وراح الشعراء يتبارون فى اللعب بالألفاظ وجمعها ، ويخلطون كلامهم بكلام غيرهم ، وهم لا يحسبون أنهم لا يخلون بروح الشعر ، ما داموا يلتزمون حروف الروى فى كل بيت ، وعروض البحر فى كل قصيدة "(٢) .

---

(١) دراسات فى تاريخ الأدب العربى - كراتشكوفسكى - ص ٢٣ ط ١٩٦٥

(٢) الشعر المصرى بعد شوقى ص ٣ نقلاً عن مقال للعقاد فى الفصول ط نهضة مصر .

فخروج البديع عن دائرته المرسومة ، وغلبة الكلفة عليـه ، أحالـه إلى صنعة عقيمة لا يؤدى دورًا فى المجال الأدبى بصفة عامة ، والفن الشعرى بصفة خاصة ، بل أصاب الأدب العربى بتدهور لعدة قرون أنضب فيها ماء الشعر وأخرجه عن مداره.

كان طبيعيًا أن يكون استخدام البديع بهذه الصورة ذا أثـر قـوى فـى تدمير الذوق الأدبى ، كما كان طبيعيًا أن يهاجمه النقاد ويهونوا من شأنه ؛ لأنه أصبح سببًا من أسباب القبح ، وليس عاملاً من عوامل الجمال الذى لاحظه النقاد الأقدمون .

ويجمل بنا أن نقف وقفة يسيرة عند بعض الدارسين المحـدثين الذيـن نظـروا إلى البديع نظرة موضوعية ، بعيدة عن عوامل الانحطاط الخارجية التى ألمت بـه فـى فترات القحط الفكرى والجفاف الفنى ، فهم يرون فيه قيمة كبرى ، وأنه يقف ندا لعلمى المعانى والبيان ؛ لأثره البارز فى العبارة :

" إن المحسنات البديعية ليست أمورًا تابعة للمعانى والبيان ، ولا ثانوية يسيرة الأهمية ؛ بل هى وجوه توجد وحدها ، وإنا برفـض هـذا الاعتبـار فـى التقديـر ، نستطيع النظر فى المحسنات نظرًا متفننًا منعمًا ، لندرك أثرها فى العبارة "(١) .

(٩)

علماء البلاغة يعرفون البيان بأنه :

علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فـى وضـوح الدلالـة عليـه ، وحصروا أبحاثه فى التشبيه والمجاز والكناية .

وحصروا البديع فى وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، ووضوح الدلالة .

ويفهـم مـن تعريـف البديـع ، أنـه لا يـأتى إلا بعـد توافـر المعـانى والبيـان ، وواضح مدى التعسف فى مفهوم البديع بهـذه الصـورة " فـالحق الـذى لا ينـازع

---

(١) فن القول – أمين الخولى – ص ١٨٤ ط دار الفكر العربى .

فيه منصب أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة ، وأن كل واحد من التطبيق على مقتضى الحال ، ومن الإيراد بطرق مختلفة ، ومن وجوه التحسين ، قد يوجد دون الآخرين ، وأول برهان على ذلك أنك لا تجدهم فى شئ من أمثلة البيان يتعرضون إلى اشتمال شئ على التطبيق والإيراد ؛ بل تجد كثيرًا منها خاليًا عن التشبيه والاستعارة والكناية التى هى علم البيان ، هذا هو الإنصاف ، وإن كان مخالفًا لكلام الأكثرين "(١) .

ووجود البديع على ضربين :

معنوى : يرجع إلى تحسين المعنى أولاً وبالذات ، وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضًا(٢) ، كما فى المشاكلة ، فالغرض فيها معنوى ، ويصحبه أيضًا الحسن اللفظى ، لما فى المشاكلة من إيهام المجانسة .

ولفظى : يرجع إلى تحسين اللفظ أولاً وبالذات ، وإن كانت تفيد تحسين المعنى أيضًا ، لأنه إذا عبر بلفظ حسن ، استحسن معناه تبعًا ، وكذلك إذا كان المعنى حسنًا تبعه حسن اللفظ الدال عليه .

الافتعال هنا ظاهر فى تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية ، لأن تداخل الحسن فيهما واضح ، فما دام المعنى حسنًا ، تبعه لفظ حسن يؤديه ، وما دام اللفظ حسنًا ، فلا يعبر به إلا عن المعنى حسن ، فالحسن المعنوى واللفظى مشترك بين المحسنات سواء أكانت معنوية أم لفظية ، ولا عبرة بأن يكون فى أحدهما قدر أكبر من الآخر .

ومهما يكن فليس غرضنا الآن إبراز هذا التكلف فى تقسيم المحسنات إلى معنوية ولفظية ، ولكن الغرض إبراز الاضطراب الذى وقع فيه العلماء حين جعلوا تقسيم الكلام إلى بيان بديع ، ووضعوا الحدود للفرق بينما دون أن يلتزموا بها عند التطبيق ، فنلحظ مثلاً أن :

---

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص - السبكى ٢٨٤/٤ ط عيسى الحلبى .

(٢) المطول - التفتازانى ٤١٧ ط ١٣٣٠ والأطول - العصام ١٨١/٢ ط ايران وعقود الجمان ٧٨/٢

١ - الإستعارة قد وضعها المتأخرون فى علم البيـان ،"وهـى عندهـم نـوع مـن المجاز ؛ بل هى أفضل أنواع المجاز وأخص منه ، إذ قصد المبالغة شـرط فيهـا ، وموقعهـا فى الأذواق السليمة أبلغ ، وليس فى أنواع البديع أعجب منها إذا وقعت موقعها"(١).

هذه الاستعارة التى اشترط فيها العلماء قصد المبالغة ، والتى عدها ابن حجة الحموى أعجب أنواع البديع إذا وقعت موقعها ، ضمها العلمـاء إلى علـم البيـان ، فى حين جعلوا المبالغة نفسها(٢) ، وهى : إفراط وصـف الشـئ بـالممكن القريـب وقوعه عادة ، وما يتفرع عنها إغراق وغلو مقبول ، من أنواع البديع . الإسـتعارة والمبالغة يشتركان فى هدف واحد هو المبالغة ، وفرقوا بينهما فجعلوا أحدهما بيانًا والآخر بديعًا ، دون أن يكون ثمة مبرر لهذه التفرقة .

٢ - علماء البلاغة يضـربون بعض الأمثلة ويقولون : إنها مجـاز مرسـل ، ثم يضربون الأمثلة نفسها ويقولون : إنها مشاكلة .

ففى قوله تعالى حكاية عن المنافقين : ﴿ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَـيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَـا نَحْـنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّـهُ يَسْـتَهْزِئُ بِهِـمْ ﴾ البقـرة ١٤ ، ١٥ والمعنى يجازيهم على استهزائهم ، وسمى الله تعـالى ذلـك استهزاء مجـازًا ، مـن تسـمية الجزاء على الذنب باسم الذنب(٣) والعرب تسمى الجزاء على الفعل باسمه ، قال تعالى:
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ الشورى ٤٠ .
﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ البقـرة ١٩٤
وهو ما تعارف عليه العلماء بأنه مجاز مرسل علاقته السببية .

وفى باب المشاكلة(٤) ، وهى : ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبتـه، كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ فالجزاء عـن السيئة فـى الحقيقـة غـير

---

(١) خزانة الأدب ، الحموى - ص ٤٨ ط ١

(٢) هذا تعريف للتبليغ أحد أقسام المبالغة .

(٣) أمالى المرتضى ١/٥٦ ، ١٤٤ - ١٤٧ الشريف المرتضى ط عيسى الحلبى .

(٤) خزانة الأدب - ابن حجة ٣٥٦ ، الإيضاح - القزوينى ٤٩٤ ط بيروت .

سيئة، والأصل : وجزاء سيئة عقوبة مثلهـا . ومنـه قولـه تعـالى ، ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ أى : فعاقبوه . فإذا كانت الأمثلـة نفسـها يعـبر عنهـا مـرة بأنها مجاز مرسل ، وأخرى بأنها مشاكلة ، والمجاز يدخل فى علم البيان الذى يعتـد به عند علماء البلاغة ، بينما المشاكلة من البديع الذى يعتبر فضلة يمكـن الاستغناء عنه ، والعلة هى العلة لم تختلف ، فكيف يقال عن الشـئ الواحـد بأنـه ذو قيمـة ، وغير ذى قيمة فى وقت واحد ؟!

٣ – **التدبيج** : وهو عبارة عن ذكر ألوان يقصد بها التوريـة أو الكنايـة(١) كقول أبى تمام :

تردّى ثيـابَ الموتِ حُمْرًا فما أتَى ... لها الليلُ إلا وهْىَ من سُندسٍ خُضْر

فحمرة الأكفان : كناية عن استشهاده بالقتل ، وخضـرة السـندس : كنايـة عن دخوله الجنة . هذا البيت وغيره مما ذكر فيه ألوان يقصـد بهـا الكنايـة ، كنايـة وتدبيج فى آن واحد ، فلمَ عُد من البديع رغم إنه كناية ؟ وإذا كـان يحمـل معنـى الكناية فلماذا لم يوضع فى علم البيان ؟

إن الحـدود الفاصلة بين النوعـين واضحـة تمامًا ، والاضطراب فى المفـاهيم ما زال قائمًا .

٤ – **تجاهل العارف** : وسماه السكاكى بسـوق المعلـوم مسـاق غـيره لنكتـة المبالغة فى التشبيه ، ومن الناس من جعل تجاهل العارف مطلقًا ، سـواء كـان علـى طريق التشبيه أو على غيره(٢) . وفائدته المبالغة فى المعنى ، نحـو قولـك : أوجهـك هذا أم بدر ؟ فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر ، إلا أنه أراد المبالغة فاسـتفهم ، ففهم من ذلك شدة الشبه بين الوجه والبدر ، فإن كان السـؤال عـن الشـئ الـذى يعرفه المتكلم خاليًا من الشبه ، لم يكن من هذا الباب ، بل يكـون مـن بـاب آخـر

---

(١) الإيضاح ٤٨٣

(٢) خزانة الأدب ١٢٢

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ﴾ طه ١٧ فإن السؤال ما وقع لأجل المبالغة فى التشبيه المشار إليه فى تجاهل العارف ؟ بل هو لفائدة أخرى : إم لإيناس موسى ؛ لأن المقام مقام رهبة ، وإما لإظهار العجز الذى لم يكن موسى يعلمه .

انظر إلى تعريف تجاهل العارف ، وتضمنه لنكتة المبالغة فى التشبيه حتى يدخل علم البديع ، وإذا كان خاليًا من التشبيه لم يكن من هذا الباب ، وإنما يكون من باب آخر ، ليكن من المعانى أو من البيان ، أى أنه إذا خلا من التشبيه أصبح ذا منزلة عند علماء البلاغة ، وإذا تضمن التشبيه دخل فى علم البديع ، وصار ذيلا فى البلاغة لا يعتد به ، وليس وراء ذلك من عجب .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إذا كان تجاهل العارف أساسه المبالغة فى الشبيه ، أفلا يكون أدعى أن يدخل فى علم البيان ، وليس فى البديع ؟

هذه بعض ألوان من البديع - لا نتوخى فيها الحصر - نرى من الأحرى أن توضع فى علم البيان ، اللهم إلا إذا كان البديع والبيان بمنزلة واحدة ، لا يفضل أحدهما الآخر ، وليسا شيئين أحدهما فى المقدمة والآخر فى المؤخرة . وكما قلت ليس الغرض حصر جميع الوجوه التى أدخلها علماء البلاغة فى البديع ثم يقضون عليها بعد ذلك بأنها ليست من صميم البلاغة ، وإنما هى من توابعها ، فيقللون من شأنها ، ويغضون من قيمتها ، وإنما الغرض أن نبين أن هذه الأنواع وما يماثلها جديرة أن تضم إلى البيان ، ما دام الفضل يعزى إلى البيان دون البديع .

وقد كان الزمخشرى على صواب حين كان " يسمى البيان والبديع بعلم البيان فى كثير من كلامه فى الكشاف "(١) مهتديًا فى ذلك بعبد القاهر الجرجانى الذى جعل البيان والبديع كلمتين مترادفتين(٢) .

ونحب أن ننبه إلى أن بعض الأنواع التى وضعها المتأخرون فى علم البديع لا تحمل سمة الحسن ، ولا تضفى على الكلام قيمة أو جمالاً ،

---

(١) شروح التلخيص ١٥٣/١

(٢) انظر مقدمة بديع القرآن - حفنى شرف ص ٢٦ - ٢٨ ط نهضة مصر .

وكثير منها لا يستحق أن يقتحم قلعة البديع أو يتربع فى ساحته ، وإنما أضيفت إلى البديع ؛ تباهيًا بابتكار أنواع جديدة ، وضعوا لها أسماء جديدة لم يسبقوا إليها . وابن حجة الحموى يصف الكثير من هذه الأنواع بإنها سافلة لا تستحق أن تنتظم فى أسلاك البديع(١) .

*   *   *

وخلاصة البحث :

١ - إن عبقرية اللغة العربية تتمثل فى جمالها وكمالها ، وجمالها يبعث من جرسها وإيقاعها ، كما ينبعث من العلاقات بين ألفاظها ، واهتمام الشعراء والكتاب بتهذيب أشعارهم وأدبهم كان وسيلة للوصول إلى هذا الجمال والمحافظة عليه .

٢ - البديع هو الغاية من العلوم الأدبية كلها ، فهو فى الذروة منها ، وليس تابعًا لها .

٣ - كثرة البديع أو قلته ليست سببًا فى الحسن أو القبح ، وإنما التكلف فى استخدامه هو الذى يهوى بمنزلة البديع العالية .

٤ - كثرة البديع كان هو المجال الأكبر لمدرسة التجديد ، فنشأت عنه الخصومات، وكان النقاد ما بين مفتون به وساخط عليه .

٥ - البديع ليس مجرد حلية ، وإنما هو مرتبط بالمعنى ، وفصل البيان عن البديع نوع من الافتعال .

٦ - إبراز قيمة البديع باعتباره صنوا لعلمى المعانى والبيان .

٧ - البديع وجه من وجوه الإعجاز ، أو على أقل تقدير هو باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ...

---

(١) انظر خزتنه الأدب ٣٧١ ، ٣٦٦ ، ١٧٥ ، ٤١٧

البَابُ الثَّانِي

البَدِيع عِنْدَ البَلاغيّين



البديع عند البلاغيين

تطلق كلمة البديع على الغريب العجيب ، أو الجديد الذى ينشأ على غير مثال سابق ، وهى فى أسماء الله تعالى بمعنى الخالق ابتداء لا عن مثال سابق ، يقول تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ البقرة ١١٧ .

وفى الحديث الشريف بمعنى الحلاوة والطيب ، يقول الرسول ﷺ فى وصف تهامة : " إن تهامة كبديع العسل : حلو أوله ، حلو آخره " .

وقد استعمل الشعراء والكتاب البديع وألوانه ؛ لما فيه من طرافة وجمال ، دون أن يلتزموا بشئ من القيود التى وضعها العلماء المتأخرون لمفهوم البديع كعلم له مصطلحاته وألوانه الخاصة التى تقتصر عليه ، وحدوده التى يعرف بها دون أن يسمحوا لغيرها أن تدخل منطقته . فكل ما هو طريف وجميل ينطوى تحت كلمة البديع سواء كان جناسًا أو طباقًا ، أو إستعارة أو تشبيهًا ، أو إيجازًا أو إطنابًا وله أثر فى تكوين العبارة وتصويرها وتزيينها .

وتنبه الشعراء بصفة خاصة إلى الأثر الذى يتركه هذا البديع فأولعوا به واستخدموه فى أشعارهم باعتباره وسيلة للوصول إلى هذا الغاية : استعمله بشار ابن برد ومسلم بن الوليد ، وابن الرومى ، والبحترى ، حتى أصبح البديع غاية فى ذاته على يد أبى تمام .

ويقال إن مسلم بن الوليد هو أول من أطلق كلمة البديع على هذا الفن وليس ابن المعتز ، فقد جاء مسلم بهذا الذى سماه الناس البديع(١) وشاعت هذه الكلمة حتى صارت فى العصر العباسى تعنى كل صورة غريبة أو طريفة أو جديدة حتى طغت على الأساليب الشعرية أو النثرية .

جاء ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) وأراد أن يجمع شتات هذه الألوان البديعية المتفرقة فى سلك واحد ، فوضع اللبنة الأولى فى بناء صرح البديع : جمع منه سبعة

---

(١) الأغانى - الأصفهانى ٣١/١٩ ط دار التأليف .

عشر لونًا ، وتباهى بعمله فقال : وما جمع فنون البديع أحد قبلى ، ولا سبقنى إليه مؤلف .

وعاصره قدامه بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ) فجمع من ألوان البديع عشرين نوعًا ، منها سبعة أنواع ذكرها ابن المعتز من قبل ، فكان ما زاده قدامه ثلاثة عشر نوعًا فتكامل لهما ثلاثون .

ثم تبعهما العلماء فى رفع قواعد هذا البناء ، فجمع أبو هلال العسكرى (ت ١٩٥ هـ) سبعة وثلاثين نوعًا مضيفًا إلى قدامه سبعة أنواع أخرى .

وأتى ابن رشيق (ت ٤٦٣ هـ) فأضاف إلى البديع ما أضاف ، حتى بلغ به خمسة وستين بابًا كما يقول السبكى(١) .

إلى أن جاء ابن سنان الخفاجى (ت ٤٦٦ هـ) فنظر فى هذا الحشد من ألوان البديع فرأى بعضها ينشأ من وضع الألفاظ فى مواضعها ، وبعضها يأتى من مناسبة الألفاظ للمعانى ، فجعلها نوعين :

قسم يتعلق بالألفاظ وآخر يتعلق بالمعانى(٢) . فكانت هذه النظرة المتأملة الفاحصة مدخلاً للعلماءالمتأخرين أن يقسّم البديع إلى محسنات معنوية ومحسنات لفظية.

ثم رأينا ابن أبى الأصبع لمصرى (ت ٦٥٤ هـ) يتناول البديع فيبدع ، ويذكر أنه وقف على أربعين كتابًا فى هذا الفن ، وأخذ منها سبعين نوعًا ، واستخرج عشرين(٣) .

وصنف ابن منقذ (ت٥٨٤ هـ) كتاب التفريع فى البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعًا (٤) .

---

(١) عروس الأفراح ٤٦٧/٤

(٢) سر الفصاحة - ١١٠ ، ١١٨ وما بعدهما .

(٣) انظر مقدمة تحرير التحبير ص ٨٧

(٤) عقود الجمان ٧٨/٢

كل ذلك وألوان البديع ينطوى تحتها ما يدخل فى علم المعانى ، وما يدخل فى علم البيان ، وما يدخل فى علم البديع . إلى أن جاء السكاكى (ت ٦٢٦هـ) وحاول أن يرسم الحدود بين هذه العلوم الثلاثة ويضع كلاً منها فى موضعه الذى يراه . فلا تختلط الحدود ، ولا تتداخل الأمور . فوضع أنواع البديع تحت اسم المحسنات وقسمها مهتديًا بالخفاجى إلى محسنات معنوية ، ومحسنات لفظية ، وفصلها عن علم المعانى وعلم البيان .

بقيت خطوة أخيرة قام بها الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩ هـ)(١) وهى أنه ضم هذا المحسنات التى ذكرها السكاكى تحت اسم البديع . وانتهت إلى ذلك علوم البلاغة بأقسامها الثلاثة : معان ، وبيان ، وبديع .

ذكر الخطيب القزوينى من البديع المعنوى ثلاثين نوعًا . ومن اللفظى سبعة أنواع ، وذكر أثناءها أمورًا ملحقة بها تصلح أن تعد أنواعًا أخر .

وما جاء به الخطيب هو المعتمد حتى الآن فى دراستنا للبديع ، دون نظر إلى هذا السيل الجحاف الذى أتى به من قبله من ألوان البديع ، ومن جاء بعده من أصحاب البديعيات ، حتى وصلت على أيدى أصحابها إلى أكثر من مائتى نوع !

والبديع عند البلاغيين هو :

علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ورعاية وضوح الدلالة .

أى : أن هذه الوجوه تعتبر محسنة للكلام بعد رعاية هذين الأمرين ، وإلا لكان البديع كتعليق الدر على أعناق الخنازير .

وقد يخلو الكلام الفصيح البليغ عن صنعة البديع ، كذلك يخلو الكلام الذى فيه صنعة لبديع عن الفصاحة والبلاغة ، فيظن أن الصانع يستحق المدح باعتبار

---

(١) ومن قبله بدر الدين من مالك فى كتابه المصباح - توفى سنة ٦٨٦ هـ .

صنعة البديع ، والذم باعتبار فوات صناعة الفصاحة والبلاغة ، كلا ليس الأمر كذلك ، فصانع البديع لا يستحق المدح على الإطلاق ، وإنما يستحق المدح بعد رعاية شرائط البلاغة من رعاية المطابقة ووضوح الدلالة ، ولذلك دخلت هذه الشرائط فى تعريف البديع . فالبديع لا يكون بديعًا إلا بمراعاة ما يدخل فى نطاق المعانى والبيان ، وحينئذ يعدّ الكلام الذى يشمل صنعة البديع هو أقصى مراتب الكلام فى الكمال . فإذا عرفنا الكلام الكامل غاية الكمال قلنا :

إنه كلام بليغ مُوَشًّى بالمحسنات البديعة .

ومحسناتِ الكلام : إما معنويةٍ ، وإما لفظية .

فالمعنوى : هو ما يزيد المعنى حسنًا ، إما بزيادة تنبيه على شئ ، أو بزيادة التناسب بين أجزاء الكلام ، فبعض هذه المحسنات المعنوية - إذن - لا تخلو عن تحسين اللفظ .

واللفظى : هو ما يزيد الألفاظ حسنًا ، وإن كان لا يخلو عن تحسين المعنى .

وقد جرت عادة العلماء أن يبدأوا بالمعنوى ؛ لأن المقصود الأصلى هو المعانى ، والألفاظ توابع وقوالب لها .

ونبدأ بالحديث عن المحسنات المعنوية جريًا على المألوف .

الفصل الأول

المحسّنات المعنويّة

فمن المحسنات المعنوية :

الطباق :

ويسمى المطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ .

وهو : أن يجمع بين متضادين ، أى : معنيين متقابلين فى الجملة . وهو نوعان : حقيقى ومجازى ، ويخص بعضهم الثانى باسم : التكافؤ : فالطباق الحقيقى ، ما كان بألفاظ الحقيقة ، كقوله تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ * وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ ﴾ فاطر ١٩ - ٢٢ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ النجم ٤٣ - ٤٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ الكهف ١٨ .

وقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ الرعد ١٠ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ الحاقة ٢٢ ، ٢٣ طابق بين العلو والدنو .

وقوله تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ الغاشية ١٣ ، ١٤.

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ آل عمران ٢٦ .

وكقول الشاعر :

ويومٌ علينا ويوم لنا ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرّ

وقول أبى صخر الهذلىّ :

أمَا والذى أبْكَى وأضْحكَ والذى ... أماتَ وأحياَ والذِى أمْرُ الأمْرُ

والطباق المجازى : ما كان بألفاظ المجاز ، كقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى ﴾ البقرة ١٦ .

فإن اشتراء الضلالة وبيع الهدى مجاز ؛ لأن اشتراء الضلالة وبيع الهدى لا يكون على سبيل الحقيقة .

وكقول على رضى الله عنه :

" أحذروا صَوْلَةَ الكريم إذا جاعَ ، والتقىّ إذا امتُهن " ليس يعنى بالجوع والشبع ما يعرفه ما الناس من امتلاء المعدة وخلوّها ، وإنما المراد : احذروا صولة الكريم إذا ضيم وامتهن ، واحذروا صولة التقى إذا أهنت دينه .

وكقول الهامى :

لقد أحْيَاَ المكارمَ بعد مَوْت ... وشادَ بناءَها بعدَ انهدامِ

فالأحياء والموت ، والشيد والانهدام ، ليست معانى حقيقية ؛ بل هى مجازية ، إذ المراد : أنه أعطى بعد أن امتنع الناس كلهم عن العطاء .

* * *

والطباق قد يكون طباق إيجاب كالأمثلة السابقة ، وقد يكون طباق سلب ، كقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ . الأعراف ١٤٦ فطابق بين لا يتخذوه وبين يتخذوه .

ومثله قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة ٦ طابق بين الإنذار وعدم الإنذار ، وأحدهما موجب والآخر منفى .

وقوله عز وجل : ﴿ تَعْلَمُ مَا فى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَـا فـى نَفْسِـكَ ﴾ المائدة ١١٦ . أثبت العلم أولاً ونفاه ثانيًا .

وقوله ﷺ : " كونوا للعلمِ دُعاة ، ولا تكونوا له رُوَاة " .

* * *

وهذه كلها أمثلة للطباق اللفظى .

وهناك نوع آخر هو الطباق المعنوى . وهو ما كـان فـى المعنـى وليـس فـى اللفظ كقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلا تَكْذِبُونَ ❋ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَـمُ إِنَّـا إِلَيْكُـمْ لَمُرْسَـلُونَ ﴾ يس ١٥ ، ١٦ معناه : ربنا يعلم إنا لصادقون .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ البقرة ٢٢، لما كان البناء رافعا للمبنى قوبل بالفراش الذى هو خلاف البناء .

فقوله : يهديه ويضله من الطباق اللفظى .

وقوله : يشرح صدره مع قوله يجعل صدره ضيقًا حرجًا من الطباق المعنوى ؛ لأن معنى " يشرح صدره " يوسعه بالإيمان ، ويفسحه بالنور وهو يطـابق قولـه : " ضيقًا حرجًا " .

وقول ابن المعتز : مـن أملـح الطبـاق وأحسـنه قولـه تعـالى : ﴿ وَلَكُـمْ فِـي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ البقـرة ١٧٩ لأن معنى القصاص القتل ، وهو سبب الحياة .

وكقول المقنع الكندى من أبيات الحماسة :

لهم جُلُّ مـالى إنْ تَتَـابَع لى غِنىً   وإن قَلّ مـالى لا أكلِّفهـمْ رِفـدا

فهذا من الطباق المعنوى ؛ لأن قوله : إن كثر مالى ، والكثرة ضد القلة .

* * *

وقد يكون الطباق خفياً ، كقوله تعـالى : ﴿ وَلَكُـمْ فِـي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ ﴾ فالقصاص معناه : القتل ، وهو سبب فى الإبقاء علـى الحيـاة فيجمـع بـين الطبـاق الخفى والمعنوى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ غافر ٤١ فقوله : أدعكم إلى النجاة معناه : أدعوكم إلى الجنة وهو ضد النار .

وقوله تعالى : ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ نوح ٢٥ فالإغراق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار ، وهما متضادان وهى أخفى مطابقة فى القرآن . هكذا قال ابن منقذ(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ النحل ٥٨ .

لأن ظل لا تستعمل إلا نهارا ، فإذا لمح مع ذكر السواد ، كأنه طباق بذكر البياض مع السواد .

وكقول الشاعر :

وجْهُهُ غايةُ الجمالِ ولكن ... فِعلُه غايةٌ لكلِّ قبيح

فالجمال ضده الدمامة ، والدمامة تستلزم القبح ، فكان الطباق خفيًا .

واعلم أن مطابقة الضد بالضد ليس تحته كبير أمر ، وإنما يحسن الطباق إذا رشح بنوع آخر من البديع يكسوه حلاوة لا توجد عند فقده ، وما وقع من الطباق فى القرآن الكريم رشح بنوع آخر من البديع ، كقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الرعد ١٢ .

إذ ليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع فى الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين ، فشفع الطباق بالتقسيم .

وقوله تعالى :﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ القصص ٧٣ فإن فيه مع المطابقة اللف والنشر .

وقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾آل عمران ٢٧ فيه مع المطابقة العكس والتبديل.

---

(١) البديع فى نقد الشعر ص ٣٦ ط وزارة الثقافة .

وهكذا إذا تتبعت الطباق فى القرآن وجدته مرشحًا بنوع آخر من البديع ، فتلحظ فى الطباق إيقاع التوافق بين ما هو فى غاية التخالف .

وسُمى هذا النوع مطابقة لأن فى ذكر المعنيين المتضادين معًا توفيقًا ، وإيقاع توافق بين ما هو فى غاية التخالف يعطى المعنى شمولاً وتعميمًا .

* * *

المقابلة :

هى أن يأتى المتكلم بلفظين متوافقين فأكثر ، ثم بأضدادها أو غيرهما على الترتيب .

والفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لا يكون إلا بالأضداد ،ن والمقابلة تكون بالأضداد وبغيرها ، وإن كانت الأضداد أعلى رتبة وأعظم موقعًا .

والثانى : أن الطباق لا يكون إلا بين ضدين فقط ، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد عن ذلك من أربعة إلى عشرة ، وكلما كثر عددها كانت أوقع .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ . البقرة ٢١٦ فأتى أولاً بلفظين متوافقين وهما تكرهوا وخير ، ثم أتى بضديهما وهما : تحبوا ، وشر.

وقوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ ﴾ الأعراف١٥٧.

وقوله تعالى : ﴿ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ آل عمران ١٥٣ فقابل الفرح بالحزن ، والإتيان بالفوت .

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ النحل ٩٠ فقابل بين الأمر وما يتبعه ، وبين النهى وما يتبعه ، فقد أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة ، ففى الآية مقابلة أربعة أشياء بأربعة بأشياء.

وكقول على رضى الله عنه لعثمان :

" إن الحقَ ثقيلٌ مرىء ، والباطلَ خفيُف وبىء(١) ، وأنت رجل إن صَدَقْتكَ سخطَت وإن كذْبتُكَ رضيتَ " ، فقابل الحق بالباطل ، والثقيل المرىء بالخفيف الوبئ ، والصدق بالكذب ، والسخط بالرضا ، فهذه خمس مقابلات .

ومثال مقابلة بستة قول الشاعر :

على رأسِ عبدٍ تاجُ عزٍ يَزينُه   وفى رِجْل حر قيْدُ ذُلٍ يشَينهُ

هذه أمثلة المقابلة بالأضداد ، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد كقوله تعالى : إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ التوبة ٥٠ فضد الحسنة السيئة،والمصيبة تقارب السيئة،فكل مصيبة سيئة دون العكس، فالمناسبة ظاهرة بين الحسنة والمصيبة وإن لم يكن أحدهما ضد الآخر.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاء وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا ﴾ البقرة ٢٦٨ ، فذكر أولاً وعد الشيطان لهم بالفقر والفحشاء ، ثم قابل الفقر بالفضل ، والأمر بالفحشاء بالمغفرة ، إذ الفحشاء توجب العقوبة ، والعقوبة لازمة لارتكاب الفواحش ، والمغفرة تقابل العقوبة . فكانت الآية من أجلّ المقابلات .

وقوله تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح ٢٩ .

فالرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، فلما كانت الرحمة سببًا فى اللين حسنت المطابقة بينهما ، وكانت المقابلة لائقة .

ومن أبرع المقابلات ذلك التقابل الذى يعرضه القرآن مصورًا فيه العذاب الحسى والنعيم المادى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ الغاشية ١ - ٧ .

---

(١) الباطل وبئ : لا تحمد عاقبته .

وفى مقابل هـذا العـذاب الحسى تأتى صورة النعيم المادى بعدها مباشرة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ الغاشية ٨ - ١٦ .

فالمقابلة واضحة فى كل جزئية من الجزئيات التى تصور حالة الكافرين وعذابهم ، وحالة المؤمنين ونعيمهم .

وكذلك المقابلات التى توارد بعضها أثر بعض فى سورة الليل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى * إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى * وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى * فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ الليل ١ -٢١ .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ يقابل تمامًا ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ، والأنثى تقابل الذكر فى النوع والخلقه ، ومن ﴿ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ يقابل من ﴿ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ ﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ و ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ فى مقابلة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ ، ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾ فى مقابلة ﴿ لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى ﴾ .

فالمساعى بين الناس مختلفة متباعدة ؛ لأن منهم المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصى ، ومن يسعى لإتقاء النار ومن يلقى بنفسه فيها ، نتيجة لاتقاء الله أو الاستغناء عنه ، فكانت هذه الصور المتقابلة فى تواتر عجيب لتحدد لنا هذين الصنفين من الناس وجزاء كل فريق منهم .

واعلم أن فى تقابل المعانى بابًا عظيمًا يحتاج إلى فضل تأمل ، وهو غالبًا يتصل بالفواصل ، كما نلاحظ فى الآيات السابقة .

وقد يجئ نظم الكلام على غير صورة المقابلة فى الظاهر ، وإذا تؤمل كان من أكمل المقابلات ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى ﴾ طه ١١٨ ، ١١٩ .

فالظاهر أنه يقابل الجوع بالظمأ والعرى بالضحى .

ولكنه قابل الجوع بالضحى ، والظمأ بالعرى .

والمدقق يرى هذا الكلام فى أعلى مراتب الفصاحة ؛ لأن الجوع ألم الباطن والضحى موجب لحرارة الظاهر فقابل احتراقًا باحتراق ، كما قابل الخلو بالخلو فى العرى والظمأ ، فاقتضت الآية نفى جميع الآفات ظاهرًا وباطنًا .

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ هود ٢٤ ، فإنه يتبادر إلى الذهن هذا السؤال :

لِمَ لَمْ يقل:﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ لتكون المقابلة فى لفظ " الأعمى " وضده "البصير" وفى لفظ " الأصم " وضده " السميع " ؟

والجواب : أنه لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، وبضد ذلك ، لما ذكر انفتاح البصر أعقبه بانفتاح السمع ، فما تضمنته الآية الكريمة هو الأنسب فى الإعجاز .

* * *

التدبيج :

وهو أن يذكر المتكلم ألوناً بقصد الكناية بها ، أو التورية . كقوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فاطر ٢٧. فالألوان هنا كناية عن المشتبه والواضح من الطرق(١) .

---

(١) بديع ابن أبى الأصبع ص٢٤٢ الإتقان - السيوطى ٢/٨٩

فالجادة البيضاء هى الطريق المأهول ، وهى أوضح الطرق وأبينهـا ، ودونهـا الحمـراء ، ودون الحمـراء السـوداء ، كأنها فى الخفاء والالتبـاس ضـد البيضـاء فى الظهور والوضوح . فالطرف الأعلى فى الظهور البيـاض ، والطـرف الأدنـى فى الخفاء السـواد ، والأحمر بينهما على وضـع الألـوان فـى الـتركيب ، وأشـار بقوله (مختلف ألوانها) إلى ما فى هـذه الألوان من الوسائط بـين مركباتهـا وهـى لا تدخل تحت الحصر ، فعبر عنها بعبارة غير حاصرة لها .

ومنه قول الرسول عليه السلام :

(ما من عبدٍ يموتُ فيترك صفراءَ أو بيضاءَ إلا جعـل ا لله بكـل قـيراطٍ منهـا صفحةً من نار) ذكر الصفراء والبيضاء وكنى بهما عن الذهب والفضة . ومن التدبيج قول ابن حيّوس :

ببياضِ عَزْمٍ واحمِـرارِ صَـوارم   وسوادِ نقعٍ واخضـرارِ رِحابِ

وقول الصفدى :

ما أبصرتْ عيناىَ أحسنَ منظراً   فيمـا تَرى من سـائر الأشـياءِ
كالشامةِ الخضراءِ فوق الوَ جْنَةِ   الحمراءِ تحتَ المُقْلَةِ السـوداء

يقول العلوى(١) وللتدبيج موقع عظيم فى البلاغـة ، وهـو يكسـب الكـلام طلاوة ، ويزيده حلاوة ، ويقول فى موضع آخر ، وله أصل فى البلاغة وفرع فـى الفصاحة باسق شامل .

ومن العلماء من لم يشترط فى الألوان قصد الكناية أو التوريـة حتـى تكـون من التدبيج ، فذكر الألوان وحده يكفى لأن تدخل فى باب التدبيج كما فى قولـه تعالى ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَـارًا ﴾ يـس ٨٠ ، فكأنـه جمـع بـين الأخضر والأحمر ، وهذا من التدبيج البديعى(٢) ومنه فى الذم ما قاله بعض الشعراء :

---

(١) الطراز - العلوى ٣/٧٨ ، ٧٩

(٢) البرهان فى علوم القرآن - الزركشى ٣/٤٥٧

وأحْبَبْتُ مِن حُبهّا الباخلــين حتى ومَقْتُ ابنَ سلمٍ سـعيداً
إذا سِـيل عُرْفاً كسـاَ وجهَهُ ثياباً من اللـؤْمِ بيضاً وَسـودَا

مراعاة النظير(١) :

وهذا النوع سماه قوم بـالتوفيق ، وآخـرون بالتناسـب ، وجماعـة بـالائتلاف وبعضهم بالمؤاخاة .

وهو عبارة عن الجمع بين أمر وما يناسبه لا بالتضـاد ، والمناسبة هنـا عامـة سواء كانت المناسبة فى المعنى ، أو فى اللفظ مع اللفظ .

فمن مناسبة اللفظ مع المعنى قوله عليه السلام(٢) :

(ألا أخبركم بأهل الجنة : كل ضعيفٍ متضعّف ، أغبرَ ذى طِمِرّيْن ، لايؤْبَهُ به ، لو أقسم على الله لأبر) .

(ألا أخبركم بأهل النار : كل عُتُلّ جَواظ متكبّر) . أتـى فـى أهـل الجنـة بألفاظ سهلة رقيقة ، وفى أهل النـار بألفـاظ جزلـة شـديدة ، فوقـع التناسـب بـين الألفاظ ومعانيها .

ومن مناسبة اللفظ مع اللفظ ، قوله تعالى :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ الرحمن ٥ فكل منها مناسب للآخر فالشمس آية النهار ، والقمر آية الليل ، ويشتركان فى الإضاءة .

وقوله عليه السلام : (ذُو الوجهَيْن فى الدنيا ذُو اللسانَيْن فى النّار) فناسب بين الوجهين واللسانين .

ومن بديع هذا النوع قول بعضهم فى آل بيت النبى رضى الله عنهم :

---

(١) أنوار الربيع - ابن معصوم ١١٩/٣

(٢) عقود الجمان - السيوطى ٨٧/٢

أنتــم بنــو طه ، ونــون ، والضــحى بنــو تَبــارك والكتــابِ المُحْكَــمِ
وبنــو الأباطحِ ، والمشــاعر ، والصفا والركنِ ، والبيت العتيــق ، وزمْــزمِ

فأنه أحسن المناسبة فى البيت الأول : بيت أسماء السور ، وفى الثانى : بين الجهات الحجازية .

ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى :

دَع اليراعَ لقــومٍ يفْخَرون به وبالطّول الرُدَيْنــاَت فافتخِــرِ
فهـن أقلامُك اللاّتى إذا كتبت مجداً أتت بمداد من دم هَــدرِ

فناسب بين الأقلام والكتابة والمداد .

تشابه الأطراف :

وهو أن يعيـد الشـاعر لفظـة القافيـة فـى أول البيـت الـذى يليهـا ، فتكـون الأطراف متشابهة .

أو يعيد الناثر سجعة القرينة الأولى فى أول القرينة التى تليهـا . ووقـع ذلـك فى القرآن الكريم ، قال تعالى :

﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْـثَرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـونَ ✽يَعْلَمُـونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الـروم ٦ ، ٧ فأعـاد فاصلـة الآيـة الأولى فـى أول الآيـة الثانية . كما وقع فى غير الفواصل ، كقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَـاحٌ الْمِصْبَـاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌ ﴾ النور ٣٥ .

ومن أمثلته الشعرية قول ليلى الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف :

إذا نزل الحجّاجُ أرضًا مريضــةً تتبّعَ أقصَــى دائِهــا فشــفاها
شفاهامن الدّاء العضالِ الذى بها غلام إذا هزّ القنــاةَ ســـقاها
ســقاها فروّاها بشرْبِ سِجالها دماءَ رجالٍ يَحْلُبــون صَــراها

ومنه قول أبى نواس :

خـزيمةُ خـيرُ بنى خازمٍ ... وخازمُ خـيرُ بنى دارمِ
ودارمُ خـيرُ تميـم ومـا ... مثـلُ تميـمٍ فى بنـى آدامِ

" وفى هذا النوع من البديع دلالة على قوة عارضـة الشـاعر ، وتصرفـه فـى الكلام وإطاعة الألفاظ له ، ولا بخلومع حسن موقع فى السمع والطبع، فـإن معنى الشعر يرتبط ويتلاحم به ، حتى كأنه معنى البيتين أو الثلاثة معنى واحد"(١) .

ومن تشابه الأطراف نوع آخر يناسـب المعنـى ، وهـو أن يبتـدىء المتكلـم كلامه بمعنى ، ثم يختمه بما يناسب ذلك المعنـى الـذى ابتـدأ بـه ، فيعيـد قسـمًا من مراعاة النظير ، كقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًـا تَـأْكُلُ مِنْـهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾ السجدة ٢٧ فقوله ﴿ أفلا يسمعون ﴾ فى ختام الآية الأولى يناسب قوله فى أولها ﴿ أو لم يهد لهم ﴾، لأن الموعظـة سمعيـة ، وقولـه فى ختام الثانية ﴿ أفلا يبصـرون ﴾ يناسـب قـوله فـى أولهـا ﴿ أو لم يـروا ﴾ ، لأن الموعظة بصرية .

ومثله قوله تعالى :

﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَـاتُ فَـاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ عَزِيـزٌ حَكِيـمٌ ﴾ البقرة ٢٠٩ و لم يقل فى نهاية الآية : أن الله غفور رحيم بدلاً من عزيز حكيم، لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه ، فتشابه الطرفين واضح فى الآية .

* * *

التفويف :

وهو إتيان المتكلم بفنون شتى ، كل فـن فـى جملـة منفصلـة ، مـع تسـاوى الجمل فى الوزن . كقوله تعالى :

---

(١) أنوار الربيع ٥٠/٣

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ الشعراء ٧٨-٨٣ .

وكقوله تعالى :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ آل عمران ٢٧ .

وفي كلتا هاتين الآيتين من المحاسن بعد التفويف طرف من المحاسن يستفز العقول طرباً(١) .

وكقول الشاعر :

ولو أنّ ما بي بالجبال لَدُكْدِكتْ ... وبالنار أطفاها ، وبالماء لم يجْرِ

وبالناس لم يَحْيَوا ، وبالدهر لم يكن ... وبالشمسِ لم تطْلع ، وبالنّجمِ لم يسرِ

هذا النوع من التفويف يرجع إلى الألفاظ ، وهناك نوع آخر من التفويف يرجع إلى المعنى .

وضابطه : أن تصف الممدوح بما يدل على مدحه من صفات المكارم وسمات المحامد ، ثم تورد صفات دالة على ذمه ، ولكن اقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحا . ومثاله قول جرير :

هُمُ الأخيار مَنْسَكَةً وهَدْيا ... وفي الهَيْجا كأنهمُ صُقُورُ

بهمْ حدبُ الكرامِ على المعالي ... وفيهمْ عن مساويهم فُتُورُ

خلائقُ بعَضُهُمُ فيهَا كبعض ... يَؤُمّ كبيَرهم فيها الصغيُر

عن النكراء كلّهُم غبيٌّ ... وبالمعروف كلُهُمُ بَصِيرُ

فكل واحد من هذه الأبيات قد تضمن ما يرشد إلى الذم ، لكن اقترن به ما يخرجه إلى المدح :

---

(١) بديع القرآن ٩٨-٩٩

فقوله : كأنهم صقور ، صفة ذم ، لأن من شأن الصقور الخطف والبغى ، لكنه لما اقترن بقوله : الهيجا ،كان مدحا ، لأن الإنسان إذا كان فى الحرب كالصقر يغلب غيره ويسلبه ، فهو مدح لا محالة .

وقوله : وفيهم عن مساويهم فتور ، الفتور هو الضعف والعجز ، وهذه صفة ذم ، لكنه لما اقترن بقوله : بهم حدب الكرام على المعالى ، صار مدحًا ، لأن الإنسان إذا كان مولعا بالخصال السامة وكان متكاسلا عن المساوىء ، فهذا نهاية المدح .

وقوله : يؤم كبيرهم فيها الصغير ، يكون ذمًا ، لأن لا خير فى الكبير إذا كان مقتديًا بالصغير ، لكنه لما اقترن بقوله : خلائق بعضهم فيها كبعض ، أفهم أن الصغير والكبير فيهم سواء فى فعل المعروف والإحسان .

وهكذا قوله : عن النكراء كلهم غبى ، وبالمعروف كلهم بصير ، فإن الغباوة صفة ذم ، ولكنها إذا اقترنت بقوله : وبالمعروف كلهم بصير ، كان دليلاً على المدح .

الإرصاد :

ويسمى التسهيم .

وهو أن يكون ما يتقدم من الكلام دليلاً على ما يتأخر منه . ومثل هذا النوع من البديع محمود فى الكلام كله : نثره ونظمه ، وهو فى كتاب الله تعالى أكثر من أن يحصى ، وما ذاك إلا لأن خير الكلام ما دل بعضه على بعض .

ففائدة الأرصاد : أنه يدل على براعة الناظم والناثر ، لأن أول الكلام لا يدل على آخره إلا لشدة ارتباطه به ، وذلك من أعلى المطالب .

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ﴾ العنكبوت ٤١ .

فإذا وقف السامع على قوله ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ ﴾ فإنه يعلم لا محالة أن بعده بيت العنكبوت ، فدل المتقدم منه على المتأخر .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت ٤٠ .

فإذا وقف السامع على قوله ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا ﴾ عرف لامحالة أن بعده ذكرظلم النفوس ، لأن الكلام الأول فيه ما يدل عليه دلالة ظاهرة .

وقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلا الْكَفُورَ ﴾ سبأ ١٧ فإذا وقف السامع على قوله ﴿ وَهَلْ نُجَازِى ﴾ بعد الإحاطة بما تقدم من الكلام ، فإنه يعلم بالضرورة أن بعدها لا يكون ﴿ إِلا الْكَفُورَ ﴾ .

وعلى ذلك ورد قوله تعالى :

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ ﴾ الرحمن ٦٠ فإن السامع يتحقق بعد ذكر قوله تعالى ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ ﴾ لا يكون ﴿ إِلا الإِحْسَانُ ﴾ ؟ لما فى ذلك من الملاءمة الشديدة والتناسب الواضح .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ الواقعة ٦٣ - ٦٥ فذكر الحرث يدل على الزرع ، والاعتداد بكونه سبحانه لم يجعله حطامًا ملائم لحصول التفكه به .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ الواقعة ٦٨ .

فذكر الماء يدل على المطر الذى ينزل من السحاب بقدرة الله .

ومنه ﷺ :

" فما بَعْد الموتِ من مُسْتَعتَب ، وما بعدَ الدنيا من دارٍ ، إلا الجنةُ أو النار " .

فإن السامع إذا وقف على قوله (فما بعد الدنيا مـن دار) تحقق لامحالة أن بعده (إلا الجنة والنار) ، لما من شدة الملاءمة وعظيم المناسبة .

ومن هذا النوع قول الشاعر :

ولربما اعتصمَ الحليمُ بجاهِلٍ لاخير فى يُمْنَى بغيرِ يَسارِ

فإذا سمع السامع صدر البيت ، ثم وقف على قوله (لا خير فى يمنى) تأكد أن ما يأتى بعده قوله (بغير يسار) لما فيه من الملاءمة والمناسبة .

ومن ذلك قول زهير :

وأعلـمُ مـا فى اليـوم والأمسِ قبلَهُ ولكننى عن عِلْـم مـا فى غـدٍ عَـمِ

فالأزمنة ثلاثة : مـاض ، وحـاضر ، ومستقبل ، فلمـا ذكـر حكـم الماضى والحاضر ، عرف أنه لابد من ذكر المستقبل وحكمه ، وهو الجهـل بما يقـع فيه ، فلأجل ذلك كان الأرصاد فيه سابقاً معلوماً وهو أنه (عن علم ما فى غد عم) .

ومن هذا النوع قول البحترى :

فإذا حاربوا أذلّوا عـزيزًا وإذا سالَموا أعزّوا ذليـلا

فإن صدر البيت إلى قوله (وإذا سالموا) يدل على أن ما يأتى بعد ذلك لابد أن يكون أعزوا ذليلاً ، إذ لايفد إلى الذهن غير ذلك .

* * *

المشاكلة :

وهى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته . كقوله تعـالى : ﴿ وَجَـزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ الشورى ٤٠ .

فالجزاء عن السيئة فى الحقيقة غير سيئة ، والأصل : وجزاء سيئة عقوبة مثلها .

وقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ المائدة ١١٦.

والأصل : تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما عندك ، فا لله تعالى لا تستعمل فى حقه لفظة النفس ، إلا أنها استعملت هنا مشاكلة لما تقدم من لفظ النفس .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة ١٩٤ أى فعاقبوه .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ آل عمران ٥٤ .

أى : أخذهم الله بمكرهم فيمد لهم فى طغيانهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . ويقول أحد الباحثين(١) : و" لكننى أرى القرآن أجلّ من أن يسمى الشئ بغير اسمه لمجرد وقوعه فى صحبته ، بل أرى هذا التعبير يحمل معنى ، وجئ به ليوحى إلى القارئ بما لا يستطيع أن يوحى به ولا أن يدل عليه ما قالوا : إنه الأصل المعدول عنه . فتسمية جزاء السيئة سيئة ، لأن العمل فى نفسه سوء ، وهو يوحى بأن مقابلة الشر بالشر ، وإن كانت مباحة ، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى ، وعلى هذا النسق تمامًا ورد قوله : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ .

ومما هو جدير بالذكر أنم مثل هذا الآيات(٢) عدها قوم من مسائل علم البيان فهى مجاز مرسل علاقته السببية : من إطلاق السبب على المسبب .

وعدّها آخرون من مسائل علم المعانى ، من حيث مخالفتها لمقتضى الظاهر وهى الآن من مسائل علم البديع ، من حيث إنها توجب تغير اللفظ . ومن المشاكلة قوله ﷺ :

---

(١) من بلاغة القرآن - أحمد بدوى ص ١٨٤ ط نهضة مصر ٣

(٢) عقود الجمان - السيوطى ٩١/٢ ط مصطفى الحلبى .

" أحبُّ الأعْمال إلى الله أدوُمها وإن قلّ ، فعليكُم من الأعمال بما تُطيقـون ، فإن الله لا يَمَلّ حتى تَملّوا " فعبر عن قطع الثـواب بـالملل ، ولوقوعـه فـى صحبتـه وهو مما وقع فيه لفظ المشاكلة أولاً .

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

أَلا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا ... فنجهلَ فوقَ جهْلِ الجاهِلينا

فسمى جزاء الجهـل جهـلاً مشـاكلة ؛ لأن الزيـادة علـى جهـل الظـالم فـى مكافأة ظلمه ، ليس ظلمًا فى اعتقاد الشـاعر ؛ لأن الجهـل عنـده مـا لا يكـون لـه سبب يحال عليه عادة ، فإذا كان له سبب ، فليس بجهل .

* * *

المزاوجة :

وهى أن يزاوج المتكلم بين معنين فى الشرط والجزاء .

أى : يجعل معنيين واقعين فى الشرط والجزاء مزدوجين : فى أن يرتب علـى كل منهما معنى رتب على الآخر ، كقول ابن معصوم :

إذا تزاوجَ إثمِى ، فاقتضَى نِقَمِى ... حقَقْتُ فيهم رَجائى ، فاقتضَى نِعَمِى

زاوج بين تزاوج الأثم وهـو الشـرط ، وبين تحقيـق الرجـاء وهـو الجـزاء ، بأن رتب عليهما اقتضاء شئ : اقتضاء النقمة أو النعمة .

ومثله قول البحترى :

إذا احـتربتْ يومـًا ، ففاضتْ دِماؤُها ... تذكّرتِ القُـربَى ، ففَاضَـتْ دُموعُهـا

زاوج بين الاحتراب وتذكر القربى الواقعين فى الشرط والجزاء ، فى ترتـب فيضان شئ عليهما : فيضان الدماء أو الدموع .

هذا هو معنى المزاوجة ، وليس معناها كما يسبق إلى الوهم(١) :

---

(١) أنوار الربيع ٦/١٠١

أن يجمع بين معنيين فى الشرط ، ومعنيين فى الجزاء ، كما جمع فى الشرط بين الاحتراب وفيضان الدماء ، وفى الجزاء بين تذكر القربى وفيضان الدموع .

ومن المزاوجة فى القرآن ما ذكره السيوطى(١) فى قوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ الأعراف ١٧٥ قال : ومن المزاوجة هذه الآية .

فقد زاوج بين إتيان الآيات واتباع الشيطان فى الشرط والجزاء ، فى ترتب شئ واحد عليهما وهو الغواية ، والانسلاخ عن الآيات فى ذاته غواية .

* * *

العكس والتبديل :

وهو أن يُقدّم جزء فى الكلام ثم يُؤخر :

كقوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ فاطر ٢ .

وقوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ آل عمران ٢٧ وقوله عليه السلام : (جار الدار أحقُ بدارِ الجار) .

وقوله عليه السلام : (إن الإنسان ليسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه) .

وقيل لمريض : كيف أنت ؟ فقال : أجد ما لا أشتهى ، وأشتهى ما لا أجد، وأنا فى زمان سوء ، من وجَدَ لم يَجُدْ ، ومن جاد لم يَجدْ .

ومنه قول أبى العيناء لأحد الوزراء : أنت والله تقرب منا إذا احتجنا إليك، وتبعد عنا إذا احتجت إلينا .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٩٤/١

ومن العكس والتبديل قول الشاعر الأضبط .

ويجمـــعُ المـــالَ غـــيرُ آكلـــه　　　ويأكلُ المالَ غـــيرُ مَن جمعـــهْ

ويقطـعُ الثـــوبَ غـــيرُ لابسه　　　ويلبس الثـوبَ غـــيرُ من قطعهْ

وقول بعضهم : إنى أكره للرجل أن يكون مقدار لسانه فـاضلاً عـن مقـدار علمه ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً عن مقدار لسانه .

ومن غريب أسلوب هذا النوع ما ذكره ابن أبى الأصبع(١) فى قوله تعالى :

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * وَمَـنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنثَى وَهُـوَ مُؤْمِـنٌ فَـأُولَئِكَ يَدْخُلُـونَ الْجَنَّـةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَـهُ لِلَّـهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ ﴾ النسـاء ١٢٣ – ١٢٥ . فإن نظم الآية الأخيرة عكس نظم الآيـة الأولى ؛ لتقديـم العمـل فى الأولى عن الإيمان ، وتأخره فى الثانية عن الإسلام .

هذا هو العكس والتبديل اللفظى .

ومن هذا النوع صنف معنوى استخرجه ابن أبى الأصبع :

وهو أن يأتى الشاعر إلى معنى لنفسه أو لغيره فيعكسه(٢) .

كقوله الأخطل :

قــد يُدْرِكُ المتأنّى بعضَ حاجته　　　وقـد يكونُ مع المستعجِل الزَّلَلُ

فقال الآخر :

وربمـا فات بعضَ الناس أمرُهم　　　مع التأنّىوكان الحَزْمُ لو عَجِلوا

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٩٢/١ ، بديع القرآن ١١١ سورة المدّثر ١٢٤

(٢) خزانة الأدب ١٦٣ ، أنوار الربيع ٣٥١/٣

ومن هذا الصنف ما قاله أحد الشعراء :

إذا ما رأيت فتىً ماجدًا فظنَّ أبيه السَخَفْ
فقد يَلِدُ النُّجُبُ غيرَ النجيبِ وهل يلدُ الدرُّ إلاّ الصدفْ

هذا الشاعر يصف الأبناء بالذكاء والأباء بالسخف ، فيأتى شاعر آخر ويعكس هذا المعنى ، فيصف الآباء بأنهم أمجاد ، والأبناء بأنهم مجردون عن الفضائل فيقول :

إذا ما رأيتَ فتىً ماجدًا فكنْ بابنه سَّيئَ الِاعتقاد
فلستَ ترَى مِنْ نجيبٍ نجيبًا وهلْ تلدُ النارُ غيرَ الرمادِ

* * *

التورية :

وهى : أن تكون الكلمة محتملة لمعنيين ، ويستعمل المتكلم أحد هذين الاحتمالين ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله[1] .

أو يكون للكلمة معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ يوسف ٩٥ فكلمة الضلال تحتمل معنين : ضد الهدى ، وحب يعقوب عليه السلام لابنه يوسف ، فاستعمله أولاد يعقوب بمعنى ضد الهدى تورية عن الحب ، ليعلم أن المراد ما أهملوا لا ما استعملوا .

أو نقول على التعريف الثانى :

كلمة الضلال لها معنيان : قريب وهو ضد الهدى ، وبعيد : وهو الحب ، والمراد البعيد منهما .

---

(١) بديع القرآن ١٠٢ . الاتقان ٨٣/١ ، خزانة الأدب ٢٣٩ ، أنوار الربيع ٥/٥ ، نهاية الأرب ١٣١/٧ عقود الجمان ٩٤/٢

ومن التورية قوله تعالى :

﴿ اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ يوسف ٤٢ فكلمة ﴿ رَبِّهِ ﴾ لها معنيان :

قريب بمعنى الإله سبحانه وتعالى . وبعيد بمعنى الملك وهو المراد فى الآية .

ومن أمثلة التورية :

قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ الإنسان ١٩ .

أى مفرطون تجعل فى أذانهم الأقراط ، والحلق الذى فى الأذن يسمى قرطًا وخلدة ، والسامع يتوهم أنه من الخلود .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ محمد ٦ السامع يتوهم أن المراد العرف الذى هو الطيب ، ولكنه أراد المعنى البعيد وهو أنه علمهم منازلهم فيها .

وقوله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ ﴾ التوبة ٢١ فذكر " رضوان" مع الجنات يوهم إرادة خازن الجنات .

والمراد : الرضوان الذى هو ضد السخط .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ الشورى ٢٨ .

فكلمة الولى تحتمل أن تكون من أسماء الله تعالى ، ومعناه : الولى لعباده بالرحمة والمغفرة ، والحميد : المحمود فى السراء والضراء . وعلى هذا فالضمير " وهو " راجع إلى الله سبحانه وتعالى .

ويحتمل أن تكون كلمة الولى من أسماء المطر ، وهو مطر الربيع . والحميد أى : المحمود ، وعلى هذا فالضمير عائد على الغيث ؟

ومنه قوله ﷺ فى خروجه إلى بدر . وقيل له : من أنتم ؟ فلم يرد أن يُعلمَ السائلَ ، فقال : من ماء ، أراد : أنا مخلوق من ماء وهو المعنى البعيد ، فورّى عنه باسم قبيلة من العرب ، وهو المعنى القريب .

وقد سئل أبو بكر رضى الله عنه عن الرسول حين خروجهما من الغار إلى المدينة :

يا أبا بكر من هذا ؟ فقال : " هادٍ يهدينى السبيل " . فالمعنى القريب : يهدينى الطريق . والمعنى البعيد : يهدينى سبيل الخير وهو المراد .

يقول الزمخشرى : لا ترى بابًا فى البيان أدق ولا ألطف من التورية ، ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المتشابهات من كلام الله تعالى ، وكلام الأنبياء والصحابة.

ويقول الصفدى : ومن البديع ما هو نادر الوقوع ، ملحق بالمستحيل الممنوع ، وهو نوع التورية والإستخدام ، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرمى المرام .

يقول العلوى(١) :

والتورية لا تخلو عن تفنن فى الكلام واتساع فيه ، وتدل على تصرف بالغ، وقوة على تصريف الألفاظ ، واقتدار على المعانى ، فهى غير خالية عن فن من فنون البلاغة وعلم البديع ، وقد جرت عادة العلماء من أهل البلاغة على ذكرها والكلام عليها .

وقد تكون التورية مرشّحة أو مبينّة أو مجّردة . فالتورية المرشّحة : هى التى يذكر فيها ما يلائم المعنى القريب المورَّى به ، فيرشحه ويقويّه وهو غير مراد ، وإنما المراد هو المعنى البعيد المورَّى عنه ، كقول الصاحب عطاء الملك فى امرأة اسمها شجَر :

يا حبذا شجر وطيبِ نسيمها ... لو أنها تُسقى بماءٍ واحد

فكلمة شجر فى هذا البيت لها معنيان :

قريب : وهو ما له ساق من النبات ، وقد رشحه ما يلائمه وهو طيب النسيم ، والسقى بماء واحد ، وهذا المعنى غير مراد .

---

(١) الطراز ٦٣/٣

وبعيد : وهو اسم المرأة التى ورى عنها ، وهو المقصود فى البيت .

والتورية المبينة : هى التى يذكر معها ما يلائم المعنى البعيد المورى عنه ، يقول ابن سناء الملك :

أما وا لله لولا خوف سُخطك	لهانَ علىّ ما ألقى برهطك
ملكتِ الخافقَين فَتِهْت عُجْبًا	وليس هما سوى قلبى وقرْطِكْ

قريب : وهما المشرق والمغرب ، وهذا غير مراد .

وبعيد : وهما قلبه وقرط محبوبته ، وهو المعنى المورى عنه ، وقد نص عليه فى الشطرة الأخيرة من البيت .

والتورية المجردة : هى التى لا يذكر معها ما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد ، ومنه ما ذكره ابن الأثير فى النهاية : فقد أخبر أن الرسول عليه السلام وأبا بكر رضى الله عنه حين كانا فى طريق الهجرة من مكة إلى المدينة لقيهما رجل فقال من أنتم ؟ فقال أبو بكر : باغ ، وهاد .

فالمعنى القريب : أنه يبغى الإبل والرسول يهديه الطريق .

والمعنى البعيد : أنه يبغى الهداية والرسول يهديه عن الضلال وهو المراد ، وليس فى التورية هنا ما يلائم المعنى القريب أو المعنى البعيد .

وأعظم أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ طه ٥ . فإن الإستواء يطلق على معنيين : الاستقرار فى المكان وهو المعنى القريب ، والإستيلاء والملك ، وهو المعنى البعيد المقصود المورى عنه . والتورية هنا لم تجامع شيئًا مما يلائم المورى به أو المورى عنه .

الاستخدام :

وفيه مذهبان :

أحدهما : أن يؤتى بلفظ له معنيان أو أكثر مرادًا به أحد معانيه ، ثم يؤتى بضمير مرادًا به المعنى الآخر ، أو بضميرين مرادًا بأحدهما أحد المعانى وبالآخر المعنى

الآخر ، وهذا هو مذهب الخطيب ومن تبعه(١) . كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ المؤمنون ١٢ ، ١٣ .

فالمراد بالإنسان فى الآية آدم عليه السلام ، ثم أعاد الضمير عليه مرادًا به ولده .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ المائدة ١٠١ ، ١٠٢ فالضمير فى قوله (قد سألها) يعود على (أشياء) ، والذى سأل عنه الأولون أشياء آخر تختلف عن الأشياء التى سأل عنها الصحابة المؤمنون ونهوا عن سؤالها(٢) .

ومن هذا النوع قول البحترى :

فسقى الغَضَا والساكِنِيهِ وإنْ همُ   شبوُّه بين جَوانح وقُلوبِ

فالغضا يطلق على معنيين : واد بنجد ، وشجر معروف ، وقد عاد عليه ضميران ، أحدهما فى الساكنيه " والآخر فى " شبوه " فالضمير فى الساكنيه يعود على المكان ، وفى شبوه يعود على الشجر .

ثانيهما : أن يؤتى بلفظ مشترك ، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ، ومن الآخر الآخر . وهذه طريقة بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) فى المصباح التى طرقها ابن أبى الأصبع من قبل (ت ٦٥٤ هـ) مثل قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الرعد ٣٨ ، ٣٩ فلفظة كتاب تحتمل معنى الأجل المحتوم أو معنى الكتاب المكتوب ، وقد توسطت بين كلمتى أجل ويمحو ، فلفظة أجل تخدم المعنى الأول ، ولفظة يمحو تخدم المعنى الثانى .

ومنه قول المعرى :

وفقيهٍ ألفاظُه شِدْن للنُّعْمَا   ن ما لم يَشِدْه شعرُ زيادِ

---

(١) الإيضاح ٥٠٢ ، أنوار البديع ٣٠٨/١

(٢) الإتقان ٨٤/١

ومعنى البيت أن ألفاظ هذا الفقيه شادت لأبى حنيفة النعمان من حسن الذكر ما لم يشده شعر زياد للنعمان بن المنذر . وزياد هو النابغة الذبيانى فكلمة "النعمان" تحتمل معنى أبى حنيفة كما تحتمل معنى النعمان بن المنذر وقد توسطت كلمتى " فقيه " و" شعر زياد " والأولى تخدم أبا حنيفة ، والثانية تخدم النعمان بن المنذر .

والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد ، وهو استعمال المعنيين بضمير وبغير ضمير ، وهذا هو الفرق بين الاستخدام والتورية ، فإن المراد بالتورية هو أحد المعنيين ، وفى الاستخدام كل من المعنيين مراد(١) .

والاستخدام أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية وأحلى موقعًا فى الأذواق السليمة ، وقل من ظفر به ؛ لصعوبته وقلة انقياده .

وكثيرًا ما تلتبس التورية بالاستخدام ، والفرق بينهما :

أن التورية يستعمل فيها اللفظ بمعنيين فتريد أحدهما وتهمل الآخر .

وأن الاستخدام يستعمل فيه اللفظ بمعيين وتريدهما معًا .

اللف والنشر :

وهو : ذكر متعدد على جهة التفصيل : بالنص على كل واحد ، أو على جهة الإجمال : بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، وهذا هو اللف . ثم ذكر ما لكل واحد من المتقدم من غير تعيين ، ثقة بأن السامع يرد كل واحد إلى ما يليق به ، وهذا هو النشر .

وذكر المتعدد على جهة التفصيل ضربان :

الأول : أن يكون النشر على ترتيب اللّف ، بأن يكون الأول من النشر للأول من اللف ، والثانى للثانى وهكذا ، وهذا الضرب هو الأكثر ورودًا وشهرة.

والثانى : أن يكون النشر على غير ترتيب اللّف .

---

(١) خزانة الأدب ٥٢ ، ٥٤

فمما جاء على الترتيب قوله تعالى : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَى عُنُقِـكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ الإسراء ٢٩ .

" فاللوم " راجع إلى البخل ، " ومحسورًا " راجع إلى الإسراف ؛ لأن معنى محسورًا : منقطعًا لا شئ عندك .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى ٦ - ١١ .

فإن قوله : فأما اليتيم فلا تقهر ، راجع إلى قوله : ألم يجدك يتيمًا فآوى وأما السائل فلا تنهر ، راجع إلى قوله : ووجدك ضالاً فهدى ؛ لأن المراد بالسائل هو السائل عن العلم كما قال المفسرون .

وأما بنعمة ربك فحدث ، راجع إلى قوله : ووجدك عائلاً فأغنى .

ومنه قول الشاعر :

ألستَ أنتَ الذى مِنْ وَرْدِ وجْنته ... وَوِرْدِ راحَتِه أجنِى واغترفُ

فكلمة أجنى تعود على الوَرد ، واغترف تعود على الورد بمعنى العطاء .
ومن هذا النوع قول الشاعرة حميدة الأندلسية :

ولما أبىّ الواشون إلا فراقَنا ... وما لهم عندى وعندَك من ثارِ
وشنُّوا على أسْماعنا كلَّ غارَة ... وقلّ حُماتى عند ذاك وأنْصارى
غزوتُهم من مُقْلَتى وأدمُعى ... ومِنْ نفسى ، بالسيفِ والسيلِ والنارِ

فكل منها يعود على ما يليق به على الترتيب. وغاية القصد هنا أن يكون اللف والنشر فى بيت واحدًا خاليًا من الحشو وعقادة التركيب ، جامعًا بين سهولة اللفظ والمعانى المخترعة(١) .

---

(١) خزانة الأدب ٦٨

والضرب الثانى من المفصّل :

هو ما كان النشر فيه على ترتيب اللف ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آل عمران ١٠٦ ، ١٠٧ فى اللف ذكر البياض أولاً والسواد ثانيًا .

وفى النشر ذكر السواد أولاً والبياض ثانيًا على ترتيب اللف .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة ٢١٤ .

متى نصر الله هو قول الذين آمنوا .

ألا إنّ نصر الله قريب هو قول الرسول .

أما اللف والنشر المجمل فهو : أن يؤتى بلفظ على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، وهذا النوع لا يتبين فيه ترتيب ولا عكس ، كقول ابن أبى الحديد :

لولا ثلاثٌ لم أخفْ صرعتى ... ليست كما قال فتى العبدِ
أن أنصرَ التوحيدَ والعدلَ فى ... كلِّ مكانٍ باذلاً جَهدى
وأن أتيهَ الدهرِ كِبْرا على ... كلِّ لئيم أصعّرُ الخدَ
لذاك لا أهوى فتاةً ولا ... خمرًا ولا ذا ميعةٍ نهدِ

فذكر فى البيت الأول كلمة " ثلاث " على سبيل الإجمال ، ثم عدد هذه الثلاثة واحدًا بعد الآخر وهى : نصرة التوحيد والعدل ، ومناجاة الله فى خلوة ، وتصعير خده على كل لئيم .

ومثل ذلك قول القيسى الأندلسى :

لولا ثلاثٌ هن والله من ... أكبر آمالى فى الدنيا
حجٌ لبيتِ الله أرجو به ... أن يقبل التوبةَ والسعْيا

والعلمُ تحصيلاً ونشرًا ، إذا رَوَيْتُ أوْ سَعْتُ الورى ريّا
وأهل ود أسأل الله أن يمتع بالبقيا إلى اللّقيا
ما كنتُ أخشى الموت أنّى أننى بل لم أكنْ ألتذ بالمحيا

وأجمل من هذا كله قول الرسول ﷺ :

(إنما يُؤتَى الناسُ يومَ القيامة من إحدى ثلاث)

إما من شُبْهَةٍ فى الدين ارتكبوها
أو شهْوةٍ للذة آثروها
أو عصبيَة لحميّة أعْمَلُوها

فإذا لاحت لكم شُبهةٌ فاجلوها باليقين
وإذا عرضت لكم شهوة فاقمعوها بالزهْد

وإذا عّنت لكم عصبيّة فادرأوها بالعفو ، وكذلك قوله عليه السلام :

إن المرء بيْن يومين :

يوم قدْ مَضى أُحصِى فيه عملُه فخُتّم عليه

ويوم قد بقىَ لا يَدْرى لعله لا يصلُ إليه .

فقوله بين يومين لف مجمل ، لِإشتمالهما على ما يكون ماضيًا ومستقبلاً ، وهذه فائدة اللف ، ثم أنه نشرهما بعد ذلك بقوله : يوم قد مضى أحصى فيه عمله ، فهذا يتناول الماضى ، ويوم قد بقى لا يدرى ما يفعل فيه ، وهذا يتناول المستقبل .

فانظر ما حواه هذا الكلام من لطائف الإجمال والتفصيل ، واشتمل عليه من محاسن اللف والنشر ، ومن تأمل كلامه عليه السلام وجد فيه ما يكفى ويشفى من ذلك .

الجمع(١) :

وهو أن يُجمع بين شيئين أو أشياء فى حكم واحد .

---

(١) الإتقان ٩٢/١ ، عقود الجمان ١٠٨/٢ ، خزانة الأدب ٣٥٧ أنوار الربيع ١٦٨/٥

كقوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الكهف ٤٦ جمع المال والبنين فى الزينة .

وكقوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ الرحمن ٥ ، ٦ . فقد جمع بين الشمس والقمر فى الحسبان ، وجمع بين النجم والشجر فى السجود .

والمراد بالحسبان : الحساب المعلوم المقدر الذى لا يسبب اختلالاً ولا اضطرابًا ، والمراد بالسجود : الانقياد .

التفريق :

وهو أن يباين بين أمرين أو أكثر من نوع واحد اشتركت فيه ، وقد فرق بينهما ، ليفيد زيادة أحدهما على الآخر .

كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ فاطر ١٢ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ الفرقان ٥٢ فقد فرق بين البحرين فجعل أحدهما عذبًا والآخر ملحًا .

الجمع مع التفريق :

وهو : أن يدخل شيئان فى معنى واحد ، ويُفرق بين جهتى الأدخال .

كقول الفخر عيسى :

تشابه دمعانا غداة فِراقنا ... مشابهةً فى قصّةٍ دون قصة
فوجنتُها تكسو المدامعَ حمرةً ... ودمعى يكسو حمرة اللونِ وجنتى

فقد جمع بين الدمعين فى الشبه ثم فرق بينهما بأن دمعها أبيض ، فإذا جرى على خدها صار أحمر بسبب إحمرار خدها ، وأن دمعه أحمر لأنه يبكى دمًا ، وجسده من النحول أصفر ، فإذا جرى عليه الدمع حمره .

التقسيم :

وهو استيفاء المتكلم أقسام الشئ بحيث لا يغادر شيئًا . كقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ الواقعة ٧ - ١٠ فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ مريم ٦٤ فاستوفى أقسام الزمان ولا رابع لها .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الرعد ١٢ فليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار ولا ثالث لهما .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ آل عمران ١٩١ فلم يترك سبحانه قسمًا من أقسام الهيئات .

ومنه الآية الكريمة التى اعتاد علماء البديع أن يستشهدوا بها وهى قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ الشورى ٤٩ ، ٥٠ .

قسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام اشتمل عليها الوجود ؛ لأنه سبحانه إما أن يفرد العبد بهبة الأناث ، أو بهبة الذكور ، أو يجمعهما له ، أو لا يهب شيئًا .

وجاءت كل عطية بلفظ الهبة ، وتدرج فيها من الأدنى للأعلى . فبدأ بهبة الأناث ، ثم هبة الذكور ثم هبتهما معًا .

وعدل عن لفظ الهبة لفظ آخر وهو " ويجعل " لما فيه من معنى الحرمان فكان هذا العدول للتغاير بين المعانى .

وبدأ بالأناث : إما جبرًا لهن لاستثقال الأبوين لمكانهن ، أو لضعفهن ، وعند الضعف والعجز تكون العناية أتم ، أو أنه قدم ذكر ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدونهن ، أى هذا النوع الحقير عندكم مقدّم عندى فى الذّكر .

وتأمل كيف عرف سبحانه الذكور بعد تنكير الأناث ، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم ، وجبر نقص المتأخر بالتعريف ، فإن التعريف تنويه .

الجمع مع التقسيم :

وهو : الجمع بين أشياء متعددة تحت حكم واحد ، ثم يقسم ، أو العكس أى : يقسم ثم يجمع .

فمن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فاطر ٣٢ .

أى جعلنا فى القرآن الموحى به إليك ميراثًا منك لأمتك التى اصطفيناها على الأمم ينتفعون بما فيه من الأحكام والمواعظ والأمثال .

فجمع بينهم فى الاصطفاء ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع :

ظالم لنفسه يرتكب صغائر الذنوب الذى يؤدى إلى نقصانه من الثواب ومقتصد معتدل فى أمر الدين لا يميل إلى إفراط أو تفريط .

وسابق لغيره فى أمور الدين فترجع حسناته على سيئاته . وكلهم من أهل الجنة.

ومن ذلك بيت صفى الدين :

أَبادَهُم : فلبيتِ المالِ ما جمعُوا ... والرُّوح للسيف ، والأجسادُ للرخَم

جمع بينهم فى الإبادة ثم قسم :

ما جمعوه من مال لبيت المال ، وأرواحهم للسيف ، وأجسادهم للرخم .

وقول ابن جابر :

والمالُ والماءُ فى كَفَّيْه قد جرَيا ... هذا لراجٍ ، وذا للجيشِ حينَ ظَمِى

فقد جمع بين المال والماء فى الكفين ثم قسم :

المال لم يرجوه من الفقراء ، والماء ليروى به الجيش .

الجمع مع التقسيم والتفريق :

كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ هود ١٠٥ - ١٠٨ .

فالجمع فى كلمة نفس ، أى كل نفس ، لأن النكرة فى سياق النفى تعم والتفريق فى قوله : فمنهم شقى وسعيد .

والتقسيم ففى قوله : فأما الذين شقوا صفتهم كذا ، وأما الذين سعدوا صفتهم كذا .

يقول العلوىّ(١) : هذه الأمور الثلاثة : التفريق والجمع والتقسيم من عوارض البلاغة ، وإذا وقعت فى الكلام بلغ مبلغًا عظيمًا فى حسن التأليف وإعطاء الفصاحة حقها .

التجريد :

يقول ابن جنى(٢) : اعلم أن هذا فصل من فصول العربية طريف حسن ، وضرب من العربية غريب ، وقد وجد أستاذه أبا على الفارسى مولعًا به معنيًا .

---

(١) الطراز ١٤١/٣

(٢) الخصائص - ابن جنى ٤٧٣/٢ ط دار الكتب .

الطراز ٧٣/٣ ، البرهان فى علوم القرآن - الزركشى ٤٤٨/٣ط عيسى الحلبى .

عقود الجمان ١١٣/٢ ، أنوار الربيع ١٥٣/٦

والتجريد هو : أن تأتى بكلام يكون ظاهره خطابًا لغيرك وأنت تريده خطابًا لنفسك ، فتكون قد جردت الخطاب عن نفسك ، وأخلصته لغيرك .

مثال ذلك قول الشاعر :

إلامَ يـراكَ المجـدُ فى زىّ شـاعـر ... وقـد نحلَـتْ شوقـًا فروع المنـابر
كتمتَ بعيْبِ الشعر حِلمًا وحكمة ... ببعضهـمـا ينقادُ صعـبُ المفـاخـر
أمَا وأبيـك الخَـيرِ إنك فـارسُ الـ ... ـمقال ومُحْيِى الدارساتِ الغوائـر
وأنـك أعييْـت المسـامعَ والنُهـى ... بقولـكَ عمّـا فى بطـونِ الدفـاتـر

ألا تراه فى جميع هذه الخطابات ظاهرها يشعر بأنه يخاطب غيره ، والغـرض خطاب نفسه .

هذا نوع من التجريد ، وهناك نوع آخر :

وهو أن تجعل الخطاب لنفسك على جهة الخصوص دون غيرها ، كقول الشاعر :

أقـولُ للنفسِ تأسـاءً وتعْـزيـةً ... إحـدى يَدىّ أصـابتى ولْم تُـرِدِ

فقد جرد من نفسه شيئًا آخر ووجه إليه الخطاب .

وأمثلة التجريد غزيـرة سـواء فـى القـرآن الكريـم ، أو فـى الشـعر ، أو فـى محاورات الناس . وقد نبه السبكى على أن التجريد لا يختص بحال الخطـاب ، وإنما خص بهذا الاِسم لكونه أكثر استعمالاً وورودًا من غيره .

فمـن أمثلـة القـرآن ، قولـه تعـالى : ﴿ إِنَّ فِـى خَلْــقِ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ آل عمران ١٩٠ .

فظاهر الآية إن فى العالم من نفسه آيات ، وهو عينه ونفسه تلك الآيـات . وكقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة ٢٦٠ وإنما هـذا نـاب عـن قوله : وأعلم أنى عزيز حكيم .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب ٢١ ورسول الله نفسه أسوة حسنة أى : قدوة .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ فصلت ٢٨ .

ليس المعنى أن الجنة فيها دار خلد ، وغير دار خلد ، بل كلها دار خلد ، فكأنك لما قلت : في الجنة دار الخلد اعتقدت أن الجنة منطوية على دار نعيم ودار أكل وشرب وخلد ، فجردت منها هذا الواحد .

وذكر الزمخشري[1] أن في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ الرحمن ٣٧ فيها تجريد على قراءة رفع وردة بمعنى حصلت منها سماء وردة .

وذكر ابن جني في قراءة ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ مريم ٦ أنه من التجريد وذلك أنه يريد : وهب لي من لدنك وليًا يرثني منه وارث من آل يعقوب ، وهو الوارث نفسه ، فكأنه جرد منه وارثًا .

والتجريد على أقسام :

أحدهما : أن يكون بمن التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، كقولهم : مررت منه بالرجل الكريم والنسمة المباركة . جردوا من الرجل الكريم والنسمة المباركة آخر مثلما متصفًا بصفة البركة ، وعطفوه عليه كأنه غيره ، وهو في نفس الأمر .

ومن ذلك قول الشاعر :

لي منهم سيفٌ إذا جرّدتُه يومًا ضربتُ به رِقابَ الأعصُرِ

الثاني : أن يكون بالباء ، كقول الشاعر :

دعوتُ كُلَيْبًا دعوةً فكأنما دعوتُ بِهِ ابن الطَّورِ أو هُوَ أسرعُ

جرد من كليب شيئًا يسمى ابن الطور وهي الصدى، يريد به سرعة إجابته.

الثالث : أن يكون بفي ، كقول الشاعر :

أفاءتْ بنُو مَرْوان ظلمًا دِمَاءَنا وفي الله إن لم يَعْدِلوا حَكَمٌ عدْلُ

---

(١) الكشاف - الزمخشري ٤/٣٥٨

فجرد منه تعالى حكمًا عدلاً ، وهو هو .

الرابع : أن يكون بدون حرف ، كقول قتادة بن مسلمة الحنفى :

فلئـــنْ بقيـــتُ لأرحلَنَّ بغـزوةٍ   تَحْـوِى الغنـائم أو يموت كريـمُ

أراد بالكريم نفسه ، فكأنه انتزع من نفسه كريمًا مبالغة فى كرمه ، ولذا لم يقل : أو أموت .

وللتجريد فائدتان :

الأولى : طلب التوسع فى الكلام ، فإذا كان الكلام ظاهره خطابًا لغيرك ، وباطنه خطابًا لنفسك ، فإن ذلك من باب التوسع .

الثانية : أن يتمكن المتكلم من إجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ؛ إذ يكون مخاطبًا بها غيره ؛ ليكون أعذر ، وأبرأ من العهدة فيما يقوله ، غير محجور عليه(١) .

وهو من محاسن علوم البديع ولطائفه ، وقد استعمل على ألسنة الفصحاء كثيرًا .

المبالغة :

ابن قتيبة يتناول المبالغة من خلال الاستعارة عندما يقول : " فنراهم يقولون حين يريدون المبالغة فى وصف المصيبة عند موت أحد : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكت الريح والأرض والسماء "(٢) .

وقدامة بن جعفر(٣) يرى النقاد منقسمين حول الغلو فى المعنى ، واتصافه بالحسن أو القبح ، ولم تكن ثمة حدود تعرف بها درجة الحسن أو القبح فى المعانى المبالغ فيها حتى تدخل مجال الإستحالة ، فنراه يقطع برأى فى هذه القضية ، وهو أن الغلو أفضل من التوسط ، وهو الذى ذهب إليه أهل البصر بنقد الشعر وأخذ به

---

(١) المثل السائر – ابن الأثير ١٦٣/٢ ط نهضة مصر .

(٢) تأويل مشكل القرآن ١٣٧

(٣) انظر أثر النحاة فى البحث البلاغى .

فلاسفة اليونان ، ويحتاط قدامة لما يستشعره القارئ أو السامع ، لما في الغلو من خروج عن الواقع إلى المستحيل ، فيبرر هذا الخروج إلى حد الإستحالة أو العدم بأنه صار بمنزلة المثل الذى يضرب للشئ إذا أريد وصفه بنهاية العظم أو غاية الحقارة . وهذا عنده أحسن من مذهب التوسط والإعتدال . إلا أن هذا الرأى يحسن المبالغة التى تخرج عن حدود الواقع إلى المستحيل أثار عاصفة من الجدل بين أوساط المتأخرين ، فرفضه قوم وأخذ به آخرون :

أخذ به الرمانى(١) ومثل له بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ الأعراف ٤٠ كما أخذ به آخرون ذكرهم ابن رشيق(٢).

ورفضه قوم على رأسهم حازم القرطاجنى ، فنراه يقف على النقيض من رأى قدامة ومن أخذ به كالرمانى مدعيًا " أن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، وقد خالف فى هذا جماعة من لا تحقيق عنده فى هذه الصناعة ، ولابصيرة له بها ، فاستحسنوا من المبالغة ما خرج عن حد الحقيقة إلى حيز الإستحالة ، واحتجوا بمطالبة النابغة حسان بن ثابت بالمبالغة فى أوصافه حين أنشده قوله :

لنا الجَفناتُ الغُرُّ يلمعْنَ بالضُحى وأسيافُنا يقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمًا

فقال له : قلت أجفانك وسيوفك ، ولو قلت الجفان والسيوف ، لكان أبلغ ، والبصراء بصناعة البلاغة ، العارفون بما يجب فيها يقولون :

إنما طالب النابغة حسانًا بمبالغة حقيقية وهى تكثير الجفان والسيوف ، فاستدرك عليه التقصير عما يمكن فيما وصف ، و لم يطالبه بتجاوز غاية الممكن والخروج إلى ما يستحيل(٣) .

---

(١) النكت ٩٧

(٢) العمدة ٥٣/٢

(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ١٣٤/١٣٣ ط تونس .

ولا شك أن ما زعمه القرطاجنى بأن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، فيه مغالطة . فابن طباطبا(١) وقدامة والرمانى قد أشادوا بالمبالغة ، وخاصة هذا النوع الذى يخرج إلى حد الاستحالة أو المعدوم ، وكتبهم وآراؤهم تشهد بعلو كعبهم فى فهم أشعار العرب ، وتذوق أسرار القرآن الكريم .

كما أن الآمدى وهو إمام النقاد قد ارتضى هذا النوع من المبالغة واستحسنه فى الخروج إلى المحال فيقول : " وقد يبالغ الشاعر فى أشياء حتى يخرج منها إلى المحال ، ويخرج بعضها مخرج النوادر ، فيستحسن ولا يستقبح نحو قول الشاعر :

مَنْ رأى مِثْلَ حِبَّتِى | تُشْبهُ البدرَ إذا بَدا
تَدخُلُ اليومَ ثُمَّ تدْ | خُلُ أردافُهما غدَا

ومثل هذا كثير ، وقد بالغ النابغة فى وصف عنق المرأة بالطول فقال :

إذا ارتعثتْ خاف الجبانُ ارتعاثَها | ومن يتعلق حيثُ عُلِقَ يفْرَق

فيجعل القرط يخاف أن يسقط من هناك فيهلك ، وإنما أخرج هذا كالمثل : أى : لو كان مما يقع فيه الخوف لخاف(٢) .

والمرزبانى(٣) يرى أن المبالغة عند أهل العلم بالشعر أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط ، وكذلك الشريف المرتضى(٤) يرى أنها حسنة ، وسبب الحسن ما فيها من صنعة وتألق . فالمبالغة فضيلة لا تنكر ، ولو كانت معيبة لما أتت فى القرآن الكريم على وجوه شتى ، ولبطلت الاستعارة والتشبيه وكثير من محاسن الكلام ، وكلها مبنية على المبالغة .

---

(١) عيار الشعر ٤٥ - ٦٧ ط التجارية .

(٢) الموازنة ١٤٩/١

(٣) الموشح ٢٣١ ط نهضة مصر .

(٤) آمالى المرتضى ٩٦/١ ط الحلبى .

وهذا النوع من الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

تبليغ ، إغراق ، غلو .

فالمبالغة : هى إفراط وصف الشئ بالممكن القريب وقوعه عادة .

والإغراق : وصف الشئ بالممكن البعيد عادة .

والغلو : وصف الشئ بما يستحيل وقوعه .

فمن أمثلة التبليغ قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ الحج ٢ . فالذهول والوضع المذكوران ، مبالغة فى وصف يوم القيامة بالشدة ، وهما ممكنان فى العقل والعادة ، فاستحسنت المبالغة .

ومن المبالغة قول الرسول عليه السلام :

(والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك) فإضافة الصيام إلى الله سبحانه دون سائر الأعمال لقصد المبالغة فى تعظيمه وشرفه ، ومبالغة فى تعظيم الثواب له .

وفيه مبالغة أخرى وهى : أن رائحة فم الصائم المتغيرة بسبب الإمساك عن الطعام والشراب أطيب من ريح المسك الذى هو أعطر الطيب .

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر :

أقسمتُ انساهَا واتركُ ذكرَها   حتى تُغَيَّبَ فى الترابِ عِظامِى

فنسيان المحبوبة وترك ذكرها حتى الممات أمر ممكن قريب الوقوع فى العادة.

أما الإغراق : وهو الممكن الوقوع فى العقل وإن كان بعيد الوقوع فى العادة ، فكقول حسان فى وصف الحرب :

تشيبُ الناهدُ العذراءُ فيها   ويَسْقطُ من مَخافتِها الجنينُ

فشيب العذراء فى الحرب ممكن عقلاً دون عادة ، أو هو بعيد الوقوع عادة، أما سقوط الجنين من شدة الخوف فهو تبليغ ، لأنه ممكن الوقوع عقلاً وعادة .

ومن الإغراق قول حسان أيضًا .

لو يَدِبُّ الحَوليُّ مِن ولَـد الـذَّرِّ عليها لأَنْدَبَتْها الكُلومُ

أى إذا مشى على جلدها النمل الصغير لأثر فى جلدها وأصابها بالجروح لشدة رقته . وهذا أمر ممكن عقلاً لا عادة .

ومنه قول أبى الطيب :

كأنى هلالُ الشَكِّ لوْلا تأَوهى خفِيتُ فلمْ تُهدَ العيونُ لِرؤْيتى

وقوله أيضًا :

كَفى بجسمِى نُحُولاً أنّنى رَجُل لـولاَ مُخاطَبَتى إِيَّـاكَ لَمْ تَرنى

ومثل ذلك قول بشار :

فى حُلّتِى جسْـمُ فتىً نـاحِلٍ لـوْ هَبَّتْ الـريـحُ بـه طَـاحَـا

وقول أبى تمام يمدح المعتصم :

تعّودَ بسْطَ الكفِّ حتّى لَو أنَـه ثَنـاها لقبْـض لم تُطعْـه أناملُـهْ

ولو لَمْ يكنْ فى كفهّ غيرُ نفسِه لجـادَ بهـا فلْيتـق الله سـائلُـهْ

فهذه الأبيات وما شابهها معانيها ممكنة فى العقل إلا أنها بعيدة الوقوع فى العادة.

* * *

أما الغلو : وهو وصف الشئ بما يستحيل وقوعه عقلاً وعادة .

فإن أفضى إلى الكفر كان قبيحًا مردودًا ، وإلا كان مقبولاً ، والمقبول يتفاوت فى الحسن ، وأحسنه ما دخل عليه ما يقربه إلى الصحة مثل كاد ، ولو ، ولولا وأداة التشبيه .

كقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ النور ٣٥ فإن إضاءة الزيت دون مس النار له مستحيلة عقلاً وعادة ، ولكن دخول يكاد

التى تفيد المقاربة أخرجته عن الامتناع ؛ لأنها دلت على مقاربة الإضاءة دون الإضاءة نفسها التى هى مستحيلة .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴾ ٤٣ النور .

فإن اقتران هذه الجملة بيكاد يصرفها إلى الحقيقة ، فانقلبت من الامتناع إلى الإمكان .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ القلم ٥١ .

أى يهلكونك بأبصارهم من شدة النظر إليك بالعداوة والبغضاء . ومن الغلو المستحسن قول ابن المعتز :

يكاد يْجرى من القميص من الـ ... ـنعمة لولا القميص يمسكه

فالغلو هنا مقبول لدخول كاد ولولا ؛ لأن المعنى مبنى على المقاربة لا الحقيقة .

ومثال الغلو الذى دخل لو قول البحترى :

لو أن مشتاقًا تكلّفَ فوقَ ما ... فى وُسْعه لسعى إليكَ المِنْبَرُ

وقول أبى الطيب(١) :

عقدتْ سَنابكُها عليْها عِثْيَرًا ... لوْ تَبتغي عَنقًا عليْه لأمْكنَا

فالذى قربه إلى الصحة دخول لو عليه ، وصدر هذا البيت لا غلو فيه إطلاقًا .

ومثال الغلو المقترن بأداة التشبيه قول ابن نباتة :

كم ليلة بتّ أشكُو مِن تَطاولها ... عليّ والليلُ داجى القلب كافرُهُ
وأرقبُ الشهْبَ فيها وهْى ثابتةٌ ... كأنما سُمّرتْ منْها مَسَامِرُهُ

---

(١) إن سنابك الخيل آثارت كثيرًا من الغبار، ولو أرادت الخيل أن تسير عليه لأمكنها ذلك لكثرته وصلابته.

وقد ورد فى القرآن الكريم هذا النوع من المبالغة المرتبطة بأداة التشبيه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ ﴾ المرسلات ٣٢ ، ٣٣ ومن هذا القبيل قوله تعالى :

﴿ سَوَاءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ الرعد ١٠ .

فجعل من يسر القول كمن يجهر به ، والمستخفى بالليل كالسارب بالنهار أى ظاهر يبصره كل أحد . وهذه المبالغة بالنسبة إلينا لا إلى الله عز وجل .

يقول ابن رشيق : وكل واحد منهما أشد مبالغة فى معناه وأتم صنعة ، هذا من معجز المبالغة(١) .

وقد يأتى الغلو بدون أداة تقريب ويكون مستحسنًا كقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ الأحزاب ١٠ .

فالقلوب لا تبلغ الحناجر وأصحابها أحياء .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ إبراهيم ٤٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ الأعراف ٤٠ . وكل ما ورد فى القرآن من الغلو مقبول مستحسن .

أما الغلو المردود القبيح الذى يجب اجتنابه ، فهو ما آل بصاحبه إلى الكفر والاستخفاف بقدرة الله تعالى ، أو المدح الذى لا يليق إلا بجنابه عز وجل ، سواء إقترن بأداة تقريب أو لم يقترن .

كقول أبى نواس فى مدح الرشيد :

فَلا يتعذَّرَنَّ عليكَ عفوٌ   وسِعْتَ به جميع العالَمينا

وهذا إنما هو عفو الله سبحانه لا عفو الرشيد .

---

(١) العمدة ٧٦/٢

وقوله فى مدح الفضل بن العباس :

يـراه فى الأرضِ والسـماءِ فَمـا تجُـوزُ قُطـرَيْـه كـفُ مخلـوقِ

وكقول المتنبى :

لو كان علمك بالإلـه مقسـمًا فى النـاس ، ما بعثَ الإلهُ رسُـولاَ
أو كان لفظُك فيهم ، ما أنزل الـ ـقـرآن والتـوراة والإنجيـلا

وقوله :

يـترشّـفْنَ مِـن فَمـى رَشَـفـاتٍ هُـنَّ فيـه أحْلَـى مـن التوحيـدِ

ومن الغلو الشنيع قول ابن هانئ الأندلسى فى المعز لدين الله :

ما شـئتَ لا ما شاءتْ الأقـدارُ فاحكـمْ فأنـتَ الواحـدُ القهّـارُ
وكأنمـا أنـتَ النبـىُّ محمـدٌ وكأنَمـا أنصـارُكَ الأنصـارُ
أنـتَ الـذى كانـت تبشـرنا بـهِ فـى كُتبهـا الأحْبـارُ والأخبـارُ

والشعراء والمشهورون بالإستكثار من الغلو المردود والقبيح :

أبو نواس والمتنبى وابن هانئ الأندلسى وهو أشهرهم بذلك . وأبو العلاء المعرى.

* * *

المذهب الكلامى(١) :

وهو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام . والقرآن مشحون بهذا النوع .

يقول السيوطى : " فإن قلت : إن هذاالنوع ليس من البديع ؛ لأنه يخلو من تحسين معنى الكلام المقصود ، بل المعنى المقصود هو منطوق اللفظ ، فالإتيان بهذا الدليل هو المقصود ، فهو تطبيق على مقتضى الحال ، فيكون من المعانى لا من البديع .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع بديع القرآن ٣٧ ، الاتقان ١/١٣٥ عقود الجمان ٢/١١٨ نهاية الأرب ٧/١١٤ ، حسن التوسل ٢٢١ ، الصناعتين ٤١٠ ، أنوار الربيع ٤/٣٥٦

قلت : إخراج الكلام فى المحاورة على غير توقع ، وإبرازه فى صورة المقاصد العلمية فيه زائد على أصل تأدية المراد ، فلا بد أن يكون موجبًا للتحسين من هذه الجهة " .

ومن أمثلته قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ الزخرف ٨١ .

أى : إن صح بالبرهان القاطع ذلك ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، ويسبقكم إلى طاعته ، كما يعظم الرجل ولد الملك ، واللازم منتف بالمشاهدة فكذا الملزوم .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ الأنبياء ٩٨ ، ٩٩ .

إن هذه الأصنام والطواغيت التى تعبدونها من دون الله وقود جهنم ، ولو كانوا آلهة ما كانوا وقودًا لجهنم ، فيلزم من ذلك أن هؤلاء ليسوا بآلهة .

وقوله تعالى :

﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ الأعراف ٤٠ .

أى لا يدخل الكفار الجنة أبدًا ، حتى يلج الجمل فى خرم الأبرة ، والجمل لا يدخل فى خرم الأبرة أبدًا ، فهم لا يدخلون الجنة أبدًا .

ومن ذلك ما جاء ردًا على منكرى البعث حين قالوا :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ النحل ٣٨ .

وقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الأعراف ٢٩ .

وقال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ الأنبياء ١٠٤ .

وقال تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ ﴾ ق ١٥ .

ومن بديع ما ورد من هذا النوع قوله تعالى :

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الرعد ٤ .

كانوا يرون أن الأرض إذا تباعدت أطرافها اختلفت التربة فكان منها الطيب والخبيث ، ويستعبد ذلك فى المتقارب منها .

فبين الله لهم أن فى الأرض قطعًا متجاورات يقرب بعضها من بعض وتسقى بماء واحد ، وتختلف فى مذاقها وطعمها . على العكس من ادعائهم بأن اختلاف الأكل راجع إلى اختلاف التربة أو اختلاف الماء .

ومن ذلك قول مالك بن المرحل الأندلسى :

لو يكونُ الحبُّ وصْلاً كلّه	لم تَكُنْ غايتُه إلا المَلَلْ
أو يكون الحبُّ هجرًا كلُّه	لم تكنْ غايتُهُ إلا الأجَلْ
إنما الوصلُ كمثل الماءِ لا	يُستطابُ الماءُ إلا بالغَلَلْ

قاس الشاعر الوصل على الماء ، فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش ، فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد الهجر .

ومن شواهد هذا الباب قول الفرزدق :

لكلِّ امرئٍ نَفْسان : نفسٌ كريمةُ	ونفسٌ يُعَاصيها الفتى ويطيعُها
ونفسُك من نفسَيْك تشفَعُ للنّدى	إذا قَلّ منْ أحْرارِهِنْ شَفيعُها

يقول : لكل إنسان نفسان : نفس مطمئنة تأمره بالخير ، ونفس أمارة تأمره بالشر . والإنسان يعاصى الأمارة مرة ويطيعها أخرى ، فإذا أمرتك النفس الأمارة بترك الندى جاهدتها النفس المطمئنة وشفعت إليها فى الندى ، فى الحالة التى يقل فيها ذلك من النفوس فأنت أكرم الناس .

* * *

حسنَ التعليل(١) :

وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقى بحيث لا يكون علة له فى الواقع ، وإلا لما عد من محسنات الكلام ؛ لعدم التصرف فيه :

فمن ذلك ما قاله الشاعر فى وصف غلام تحت حنكه خال :

حبّذا الخالُ كامِنًا منه بين الـ ... خَـدّ والجيدِ رقبةً وحـذارًا
رام تقبيلَـه اختلاسًـا ولكْـن ... خافَ مِن سَيْف لحظِه فتوارَى

فظهور الخال تحت الحنك ليست له عله فى العادة ، ولكن الشاعر علله بعلة مناسبة طريفة فقال : إن الخال ود تقبيل الغلام خلسة ولكنه خشى من سيف لحظه فتوارى تحت الحنك .

ومن ذلك قول جمال الدين الحلى :

ولما نضا وجْـهُ الربيـع نقـابَه ... وفاحتْ بأطرافِ الرياضِ النسائمُ
فطـارتْ عقـولُ الطـيرِ لما رأينَه ... وقـد بهـتَتْ من بينـهن الحمائم
خشْـين جنونًا بالرياضِ وحسِنها ... فَرُحْـنَ وفى أعناقِهـنّ التمائـم

وقد يأتى الشاعر بعلة غير المعروفة على سبيل الإِستحسان ، كقول ابن رشيق القيروانى فى تعليل قول الرسول عليه السلام :

(وجُعِلت لِىَ الأرضُ مَسْجدًا وطهورا) .

سـألت الأرضَ لِمْ جُعلتْ مُصَلىً ... ولِمْ كـانت لـنا طُهْـرًا وطِـيبًا
فقالت غـيرَ ناطقـةٍ ؛ لأنـى ... حَـويتُ لكـلِ إنسـانٍ حـبيبًا

فقد جعل لكون الأرض مسجدًا وطهورا علة مناسبة لطيفة : وهى إنها حوت فى باطنها حبيبًا لكل إنسان .

---

(١) انظر فى هذا الموضوع : تحرير التحبير ٣١٠ ، أنوار الربيع ١٣٦/٦ ، سر الفصاحة ٣٢٧، عقود الجمان ١٢١/٢ نهاية الأرب ١١٥/٧ ، خزانة الأدب ٤١٦ ، الطراز ١٣٨/٣

وقد يريد الشاعر أن يثبت وصفًا غير ثابت ، إلا أن إثباته أمر ممكن كقوله :

ولـقد هَمَمْـتُ بقَتْلِهــا مِن حبها　　　　كيمَـا تكونُ خَصِيمِتى فى المَحشَرِ
حتى يطـولَ على الصراطِ وقوفُنا　　　　فيــلذَّ عــينى مــن لذيــذِ المنظــرِ

فقد ادعى الشاعر أمرًا غير ثابت ولا معتاد ، وهو هم العاشق بقتل محبوبته ، وعلله بطول الوقوف معها للمخاصمة يوم المحشر على الصراط فتلتذ عينيه بالنظر إليها.

وقد يكون إثباته غير ممكن كمعنى بيت فارس ذكره الخطيب القزوينى(١) :

لـوْ لَـمْ تكنْ نِيّةُ الجَوْزَاءِ خِدْمَتَهُ　　　　لَمَا رأيتَ عـليها عِقْدَ مُنْـتَـطِقِ

فالشاعر أراد أن يثبت وصفا غير ممكن ، وهو : نية الجوزاء خدمة الممدوح، وجعل الانتطاق علة له .

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذم (٢) :

وهو ضربان :

أحدهما : أن يستثنى من صفة ذم منفية صفة مدح بتقدير دخولها فيها كقوله تعالى :

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إلا قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ الواقعة ٢٥ ، ٢٦ أى لا يسمعون فى الجنة ما لا يعتد به الكلام أو كلاما قبيحا ، أو فيه إثـم . فهـذه صفة ذم منفية ، فإذا جاء الاستثناء أوْهَم أن ما يأتى بعده صفة ذم حتى يخـرج مـن الكلام السابق ، فإذا جاءت صفة مدح تأكد المدح السابق ؛ لأنه مدح بعد مـدح. فكان كالدعوى التى يصحبها الدليل .

---

(١) الإيضاح ٥٢٢

(٢) انظر فى هـذا الموضـوع . تحرير التحبير ١٣٣ ، بديع القرآن ٤٩ ، الصناعتين ٤٠٨ ، حسن التوسل ٢٢٩ أنوار الربيع ٢٧/٦ ، الطراز ١٣٦/٣ ، خزانة الأدب - البغدادى ٣٣٤/٣

ومن هذا الضرب قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُـونَ مِنَّـا إِلا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ المائدة ٥٩ .

فالاستفهام هنا إنكارى فى قوة النفى أى لا تنقمـون منـا وهـذه صفـة ذم منفيـة، فإذا جاء بعد ذلك الاستثناء أوهم أن ما بعده صفة ذم، ولكنه أتى بصفـة مـدح: وهـى الإيمان با لله وما أنزل إليهم، فكان مدحًا بعد مدح، وهكذا تأكيد للمدح بما يشبه الذم.

ومن ذلك قول أبى هفان :

ولا عيبَ فينا غيرَ أنَّ سَماحَنا ... أضرَّ بنا والبأسَ منْ كلِّ جانبِ
فأفْنى الردَى أعمارَنا غيرَ ظالِم ... وأفنى النّدى أموالَنا غيرَ عائب
أبونَا أبٌ لوْ كانَ للناسِ كلّهمْ ... أبًا واحـدًا أغناهـمُ بالمناقـبِ

فنفى العيب أولاً ، ثم استثنى منه السماح ، والسـماح صفـة مـدح لا ذم ، فكان مدحًا بعد مدح ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ويمكنك أن تقيس على ذلك قول الشاعر :

ولا عـيبَ فيه غيَر أنّ ذوِى النّدَى ... خِسـاسُ إذا قِيسـوا بـهِ ولِئَـامُ

وقول الشاعر :

ولاعـيبَ فيـهم غـيْرَ أنّ ضيوفَهم ... تُعـابُ بنسْـيان الأحبّةِ والوطـن

والثانى : أن تثبت للشىء صفة مدح وتعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له ، كقول النابغة الجعدى :

فتـىً كَمُلَتْ أخْـلاقُه غـيرَ أنه ... جـوادٌ فمـا يُبقِى من المال باقيـا
فَتـىً تـم فـيه مَا يسـرُّ صديقَه ... عـلى أنّ فـيه ما يسُـوء الأعـادِيا

فقد أثبت له صفة مدح أعقبها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى ، فكـان مدحًا على مدح ، فهو بمثابة تأكيد المدح من جهـة ، وهـو يشـبه الـذم مـن جهـة أخرى ، لأن الاستثناء يوهم بذلك ، ويقدر الاسـتثناء منقطعـاً فيكـون المعنـى فتـى كملت أخلاقه لكنه جواد .

ومن ذلك قول ابن المغربى الوزير :

وَيعْدِلُ فى شَـرق البلادِ وغَرْبها   على أنّه للسـيفِ والمـالِ ظـالمُ

فمدحه بالعدل أولاً وهذه صفة مدح ، ثم مدحه ثانيا بأنه محارب وكريم ، فهو ظالم لسيفه وظالم لماله . فأكد المدح .

وينطبق هذا الضرب على قول الرسول ﷺ :

(أنا أفْصَح العرب بيْد أنىّ مِن قريش) .

وفائدة هـذا الأسلوب : إثبات المحاسن وسلب المساوىء ، فتضاعف المحاسن ، وتتأكد فى الممدوح لدى الناس ، لأن كل إنسان مهما عليه من صفات الحسن ، لايسلم من بعض المساوىء .

تأكيد الذم بما يشبه المدح :

وهو ضربان أيضًا :

أحدهما : أن يستثنى من صفة مدح منفية صفة ذم بتقدير دخولها فيها :

كأن تقول : فلان لاخير فيه إلا أنه حسود ، وفلان لا علم له إلا أنه سىء الخلق ، وفلان لاقيم لديه إلا أنه يمشى بين الناس بالنميمة .

وثانيها : أن يثبت للشىء صفة ذم يعقبها بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له :

كأن تقول : فلان سىء الخِلقة إلا أنه سىء الخلق . فلان جاهل إلا أنه فاسق . وفلان جبان إلا أنه بخيل .

ومما يجب التنبيه إليه أن الإستثناء لا يعدّ من المحسنات البديعية إلا إذا تضمن معنى زائد على المعنى اللغوى للاستثناء الذى يختص به علم النحو، كما رأينا فى هذا الباب .

التوجيه[1] :

وهو أن يكون الكلام محتملاً لوجهين من غير تقييد بمدح أو غيره ، ويسميه بعضهم بالإبهام :

ومثاله من القرآن :

﴿ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ النساء ٤٦ فغير مسمع قول ذو وجهين :

يحتمل الذم : أى أسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت فكان أصم غير مسمع ، ومعناه غير مسمع جوابا يوافقك وترضاه فكأنك لا تسمع شيئًا .

ويحتمل المدح : فيكون المعنى اسمع كلاماً غير مسمع مكروها .

وكذلك كلمة (راعنا) أى أرقبنا وانتظرنا نكلمك ، وتحتمل معنى الذم ، لأن هذه الكلمة شبه كلمة عبرانية يتسابون بها وهى راعينا ، فكانوا سخرية بالدين وهزءا بالرسول ، يكلمونه بكلام محتمل ينوون به الشتيمة والإهانة ، ويظهرون به التوقير والاحترام .

ومن ذلك قول الرسول عليه السلام :(إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَعْ ماشئتَ) .

فإنه يحتمل المدح والذم فمعنى المدح: إذا لم تفعل فعلا تستحى منه فاصنع ما شئت.

ومعنى الذم : إذا لم يكن لك حياء يمنعك فاصنع ماشئت .

وقوله أيضًا فى شرح الحضرمى وهو أحد الصحابة :

(ذاك رجل لايتوسد القرآن) يحتمل وجهين :

أحدهما المدح : وهو أنه ينام الليل ولايجعل القرآن معه وسادة ، بل يحفظه.

والثانى الذم : وهو أنه ينام ولا يتوسده معه أى لا يحفظه .

وقوله أيضاً : (من جُعل قاضيًا فقد ذُبح بغير سكين) .

---

(١) عقود الجمان ١٣٠/٢ ، الأنوار ٥/٢

يحتمل المدح بأنه من شدة ما يعانيه من الوفاء بحقوق المسلمين وقع فى تعب عظيم كتعب من ذبح بغير سكين .

ويحتمل الذم بأنه وقع فىظلم النـاس ، فهـو هـالك علـى وجـه شـديد الألم كمن ذبح بغير سكين .

ومن ذلك ما قاله أبو مسلم الخرسانى يومًا لسليمان بن كثير : إنـك كنـت فى مجلس وقد جرى ذكرى فقلتَ :

" اللهم سوّدْ وجهَه ، واقْطعْ رأسهَ ، واسقنى من دمِه " .

فقال:نعم قلت ذلك ونحن جلوس بكرم حصرم ، فاستحسن توجيهه وعفا عنه.

ومن أمثلة التوجيه الشعرية قول المتنبى فى مدح كافور :

وغـيُر كثـيرٍ أن يَـزورَكَ راجلُ   فيرجِـعَ ملـكًا لِلعراقـين واليـًا

ظاهر البيت : أن من رآك أفاد منك المعالى .

وباطنه : من رآك على ما بك من النقص وقد أصبحت ملكا ، ضاق صدره أن يقصـر عمـا بلغتـه وألا يتجـاوز ذلـك إلى كسـب المكـارم ، وكذلـك إذا رآك الراجل لا يستكثر لنفسه أن يرجع واليًا على العراقين .

وقوله فيه :

يـدِلّ بمعنـىً واحـدٍ كـلُّ فاخرٍ   وقـد جَـمَع الرحمـنُ فيكَ المعانِيا

قال ابن جنى : لما قرأت هذا البيت ضحكت وضحك أبو الطيب ، وعرف مطلوبى ومثل ذلك قوله :

يضيقُ علَى من رآه العذرُ أن يُرى   ضـعيفَ المسـاعى أو قـليَل التكّرمِ

ظاهره : أن من يراه و لم يتعلم منه فهو غير معذور ولا يصح أن يكون قليـل التكرم ضعيف المسعاة ، وهذا مدح .

وباطنه : أن مثله فى خسـته ولؤم طباعـه إذا كانت لـه مسـعاة وتكـرم ، فلا عذر لأحد بعده فى تركه ، وهذا ذم .

* * *

الهزل الذى يراد به الجد(١) :

هـذا نوع من البديـع المسلك رشـيق المأخذ وهـو عبـارة عـن أن يقصـد المتكلم غرضًا من الأغراض سواء أكان مدحًا أم ذمًا أم غيره من غزل أو شكوى أو اعتذار فيخرج مقصوده مخرج الهزل المعجب والمجون المطرب. كقول الشاعر وقد دعى إلى طعام ، فأخر صاحب الدعوة الطعام إلى المساء وجعل يجئ ويذهب فى داره :

يا ذاهبًا فى داره جائيًا ... بغير ما معنىً ولا فائده
قد جُنّ أضيافُك منْ جوعهم ... فاقرأ عليهمْ سورةَ المائده

ومن طريفه قول أبى العتاهية :

أصابتْ علينا جُودك المعين يا عُمَرْ ... فنحن لها نبغى التمائمَ والنُشَرْ
سنرقيكَ بالأشعارِ حتى تَملّها ... فإن لمْ تَفِق منها رَقَيْناك بالسورْ

وقوله أيضًا :

أرقيكَ أرقيكَ باسم الله أرقيكا ... مِنْ بُخْل نفْسِك عل الله يشْفيكا

وواضح أن هذه الأبيات قد أخرجها الشاعر فى صورة الهزل وأراد بها الجدّ الذى يحمل فى طياته السخرية اللاذعة والهجاء المقذع ، ولكن الذى ضعف من وطأة هذا الهجاء ما أبداه الشاعر من الهزل فى تصويره هذه المعانى .

ومن أمثلة هذا النوع فى غير الهجاء قول ابن الهبارية :

يقولُ أبو سَعيد إذْ رآنى ... عفيفًا منذُ عامٍ ما شربتُ
على يدِ أىِّ شيخٍ تبتَ ؟ قلْ لى ... فقلتُ : على يدِ الإفلاسِ تبتُ

فإن هذا ظاهره المجون والخلاعة ، والمراد هنا الجد ؛ لأن المقصود هو شكوى الإفلاس .

(١) الأنوار ٢/١٦٦ الإيضاح ٥٣٠

وفى هذا المعنى قال البهاء زهير :

قالوا : فلانٌ قد غدا تائبًا — واليوم قد صلّى معَ الناسِ
قلتُ : متى كان وأنّى لهُ — وكيف ينْسى لذةَ الكاسِ ؟
أمس بهذِى العينِ أبصرته — سكرانَ بينَ الوردِ والآسِ
ورحتُ عن توبتِه سائلاً — وجدتُها توبةَ إفلاسِ

أما التهكم: فهو الخطاب بلفظ الإجلال فىموضع التحقير،والبشارة فى موضع التحذير، والوعد فى مكان الوعيد،والعذر فىموضع اللوم،والمدح فى موضع السخرية.

فمن الخطاب بلفظ الإجلال فى موضع التحقير قوله تعالى :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ الدخان ٤٩ .

ومن البشارة فى موضع التحذير قوله تعالى :

﴿ بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ النساء ١٣٨ .

وقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ آل عمران ٢١ .

ومن الوعد فى موضع الوعيد ، قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ الكهف ٢٩ .

فهذا ضد الإغاثة .

ومن العذر فى موضع اللوم قول أبى الحديد :

عذرتُكما إن الحِمام لمبغض — وإنّ حياة النفسِ للنفسِ محبوبُ

ومن التهكم قول ابن الرومى :

فيا له من عملٍ صالحٍ — يرفَعُه الله إلى أسفل

ولا بن دنيال فى رجل أحدب :

قسما بحسن قوامك الفتّانِ — يا أوحد الأمراء فى الحُدبانِ

يا مُخجِلاً شكل الهلال بقده ... حاشاك أن تُعْزى إلى نُقصان
والعُودُ أحدبُ وهو ألْهَى مطرب ... ولقد سمعتُ بنغمةِ العيدانَ
وكذا سفينُ البحرِ لولا حُدْبُه ... فى ظهره لم يَقْوَ للطوفانَ

وقد ذكر ابن الأصبع أن التهكم من مخترعاته والحق أن التهكم كان معروفًا من قبل فى كتب البلاغيين على أنه من الإستعارة التهكمية ، فالزمخشرى يذكر التهكم في تفسيره لقوله تعالى :﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الرعد ١١ يقول : إن المعقبات هم الحرس من حول السلطان يحفظونه بزعمه من أمر الله على سبيل التهكم ، فإنهم لا يحفظونه إذا جاء . ويمكن أن يقال إن ابن أبى الأصبع أول من أدخله فى أنواع البديع .

والفرق بين التهكم والعزل الذى يراد به الجد :

أن التهكم ظاهره جدل وباطنه هزل .

والهزل الذى يراد به الجد ظاهره هزل وباطنه جد على عكس التهكم . والفرق بين التهكم والذم فى معرض المدح: إن المقصود بالتهكم السخرية والإستهزاء .

أما الثانى فإن ظاهره لايدل علىالمدح حتى يقترن به ما يفهم أن المقصود به الهجاء .

تجاهل العارف(١) :

هو أن تسال عن شيء موهمًا أنك لاتعرفه ، وأنه مما خالجك فيه الشك والريبة.

قال السكاكى : لا أحب تسمية هذا النوع بهذا الإسم لوروده فى كلام الله ، وسماه : سوق المعلوم مساق غيره لنكتة ، ونكت التجاهل أكثر من أن تضبط كالمبالغة فى المدح أو الذم أو التعظيم أو التحقير أو التوبيخ أو التقرير ، أو التعويض أو التعجب ، إلى غير ذلك(٢) .

---

(١) تحرير التحبير ٩٤

(٢) بديع القرآن ٨٠ ، تحرير التحبير ١٣٥ ، خزانة الأدب ١٢٢ ، عقود الجمان ١٣٥/٢ ، الطراز ٨٠/٣ ، أنوار الربيع ١١٩/٥

قال صاحب الطراز : هو مقصد من مقاصد الإستعارة نقل إلى فنون البديع ويبلغ به الكلام الذروة العليا ، ويحله فى الفصاحة المحل الأعلى .

فمثال ما خرج مخرج التعجب قوله تعالى :

﴿ أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ القمر ٢٤ ، فكيف يتبعون بشرًا مثلهم ؟ إن ذلك يدعو إلى العجب .

ومنه قول نصر بن سيار :

أرى خلَلَ الرمادِ وَمِيضَ جَمْر ... ويُوشِكُ أنْ يكونَ لَهُ ضِرامُ
فإنّ النارَ بالزّندَيْن تُورى ... وإنّ الحرْبَ أوّلُها كَلامُ
أقولُ مِن التعجّبِ ليتَ شِعْرى ... أأيْقاظٌ أمَيّةُ أمْ نِيَام

ومثال ما خرج مخرج التوبيخ قوله تعالى : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِى أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ هود ٨٧ ومثله قول حسان بن ثابت:

أتهجُوه ولستَ لهُ بكُفْءٍ ... فشّرُكما لخيرِ كُمَا الفِداءُ

ومثال ما خرج مخرج التقرير قوله تعالى : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ الأنبياء ٦٢ .

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ المائدة ١١٦ .

ومنه قول جرير :

ألستُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطَايَا ... وأنْدَى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ

ومثال ما جاء للمبالغة فى المدح قوله تعالى : ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف ٣١ .

فقد كان حسن يوسف عليه السلام رائعًا ، وله مع الروعة نور وطلاقة ، وعلية سكينة تؤمن ناظره من تلك الروعة ، وتثبت قلبه لما يسرى من سكينة ، فكان تشبيهه بالملك الكريم أصح وأوقع وأشد مطابقة من أكثر الجهات .

ومن ذلك قول الشاعر :

بـدا فـراع فـؤادى حسْـنُ صورته فقلت: هل مَلِكٌ ذا الشخص أم مَلَكٌ؟

وقول أبى فراس :

تسـائلنى مـن أنـت ؟ وهـى عـليمةٌ وهـل يُفتَى مثلى عـلى حاله نُكُـر ؟

وقول التهامى :

فقـلتُ أوجْـهٌ لاح مـن تحت بُرقُع أم الـبدْر بالغـيم الرقـيق تبرقَعـا ؟

وقد يكون التجاهل لنكتة التحقير كقوله تعالى حكاية عن الكفار :

﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيـدٍ ﴾ سبأ ٧ يعنون محمدًا عليه السلام كأن لم يكونوا يعرفون منه إلا أنه رجل ما ، وهـو عندهم أظهر من الشمس .

وكقول الشاعر :

يقـولون هـذا عنْـدَنا ليـس ثَابتـًا ومَـنْ أنتـمْ حـتى يكونَ لكمْ عندُ ؟

وقد يكون الغرض التعريض ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُـدًى أَوْ فِى ضَـلالٍ ﴾ سـبأ ٢٤ فهـذا تعريض بأن الكافرين فى ضلال والرسـول على هـدى ، لأنهم لو تفكـروا فى أحـوال أنفسـهم ومـا هـم فيـه مـن الإغـارات بالحـروب وارتكـاب الفواحـش وقطـع الأرحـام ، وحـال الرسـول والمؤمنـين ومـا هـم عليـه مـن إيثـار للسلام ، واجتناب للآثـام وصلة للأرحام ، عروفوا أنهم على ضـلال ، والرسـول وصحبه على هـدى .

القول بالموجب(١) :

هذا نوع من البديع غريب المعنى ، لطيف المبنى ، راجح الوزن فى معيار البلاغة ، مفرغ الحسن فى قالب الصياغة .

وهو ضربان :

الأول : أن تثبت صفة لشئ فتنقل هذه الصفة إلى شئ آخر ، دون أن تتعرض للأول وهو ضربان بالإثبات أو النفى ، كقوله تعالى :

﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقون ٨ .

فإنهم كنوا بالعزة عن فريقهم ، وبالأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الإخراج ، فأثبت الله العزة لذاته ولرسوله وللمؤمنين ، من غير تعرض للمنافقين بإثبات صفة العزة لهم أو نفيها عنهم .

الثانى : حمل لفظ وقع فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله الكلام ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ التوبة ٦١ ، نعم ، هو أذن ، ولكن نعم الأذن ، أى هو أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير ، لا أذن سوء ، قصدوا بذلك المذمة ، ولكن فسره بما هو مدح له، ولا شىء أبلغ فى الرد من هذا الأسلوب ، لأن فيه إطماعًا فى الموافقة ، وكرهًا إلى إجابتهم فى الإبطال .

والأذن هو الرجل الذى يصدق كل ما يسمع ، ويقبل كل ما يقال ، كأن جملته أذن سامعة .

---

(١) بديع القرآن ٣١٤ ، تحرير التحبير ٥٩٩، حسن التوسل ٣٠٥ ، عقود الجمان ١٣٧/٢، خزانة الأدب ١١٦ أنوار الربيع ١٩٨/٢

ومن ذلك قول الصفدى :

ولقـد أتيـتُ لصاحِبى وسألتهُ   فى قـرْض دينارٍ لأمْـرٍ كـانا

فأجابنى: وا لله دارِى ما حوتْ   عينـًا ، فقلْت له : ولا إنسانا

أراد المخاطب بـالعين : الدرهـم والدينـار ، فحمله الشـاعر على الجارحـة المعروفة مما يحتمله الكلام .

ومنه أيضًا قوله :

وصـاحب لمـا أتاه الغِنَـى   تاه ونفـسُ المـرْءِ طماحـةُ

وقال : هـل أبصـرت منه يدًا   تشـكرُها ؟ ، قلتُ : ولا راحَةْ

أراد باليد : النعمة ، فحملها الشاعر على اليد الجارحة على خلاف مراد السائل .

ومن قول الشاعر :

ولما أتانـى العاذِلـون عـدمتُهم   وما فيهـم إلا للحمَـى قـارضُ

وقـد بُهتـوا لمَّا رأَوْنـى شاحبًا   وقـالوا: به عَين، فقلت : وعارضُ

ومن ذلك قول ابن دويدة المغربى فى رجل أودع مالاً لقاض فادعى ضياعه:

إن قـالَ قدْ ضاعَتْ ، فيصدُق أنها   ضاعَتْ ، ولكنْ منك يَعْنى لو تَعِى

أو قال : قد وقَعتْ ، فيصدُقُ أنها   وقعَتْ ، ولكنْ منه أحسنَ موقـعِ

* * *

والقول بالموجب يشترك مع أسلوب الحكيم فى أن كلاً منهمـا مـن إخـراج الكلام على غير مقتضى الظاهر ، ولكنهما يفترقان باعتبار الغاية :

فإن القول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه .

وأسلوب الحكيم ، هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده ، تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهًا على أنه الأولى بحالة ، أو الأهم له .

فالأول كقول القبعثرى للحجاج لما قال له متوعدًا بالقيد : لأحملنّك على الأدهم ، فقال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب .

فإنه أبرز وعيده فى معرض الوعد ، وأراه بألطف وجه بأن مثله خليق بأن يُصْفِد لا أن يُصَفِّد ، أى يمنح العطاء لا يقيد بالأغلال .

وكذا قوله ثانيًا : ويلك إنه حديد : لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا . فقد حمل القبعثرى كلام الحجاج على خلاف مراده ، حيث حمل القيد الحديدى على أنه فرس نشيط لا بليد .

وأما الثانى وهو الإجابة عن السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة سؤال آخر كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِى مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ البقرة ١٨٩ .

فقد سألوا عن أحوال الأهلة وتغيرها من الدقة إلى الاستواء والامتلاء ، ثم عودتها مرة أخرى إلى ما كانت من الضآلة والدقة . فأجابهم عن شئ آخر هو أنفع لهم وأجدى عليهم ، وهو أن يعلموا منها أوقات الطاعات .

وكقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ البقرة ٢١٥ .

فقد سألوا عن بيان ما ينفقون ، وأجابهم عن بيان المصارف والجهات التى يجدر الإنفاق فيها ، فهى الأهم بالسؤال ، لأن النفقة لا يعتد بها إلا إذا وقعت موقعها ، وكل ما فيه خير صالح للإنفاق .

وأنت إذا تأملت مواقع هذا النوع ، ظهر لك كمال الفرق بينه وبين القول بالموجب أتم ظهور ، وجزمت بخطأ من جعلها واحدًا كابن حجّة حينما يقول : القول بالموجب ويقال له أسلوب الحكيم .

* * *

الإطراد(٢) :

وهو من طرد الماء إذا جرى فى سهولة بلا توقف .

والمراد به هنا : أن يذكر الشاعر اسم الممدوح واسم من أمكنه من آبائه على الترتيب ، ليزداد إبانة وتوضيحًا على نسق مستقيم من غير تكلف فى النظم لا تعسف فى السبك ، حتى يكون ذكر الاسم فى سهولته كاطراد الماء وسهولة جريه وسيلانه .

والإطراد غير الإستطراد :

فالإستطراد أن تذكر كلامًا ثم تدخل عليه كلامًا أجنبيًا عنه ، ثم رجع إلى الأول ، والإطراد قد ذكرنا المراد به .

ومن أمثلة الإطراد قول الأعشى :

أقيسُ بن مسعودِ بن قيسِ بن خالدِ وأنتَ امرؤ يرجُو شبابَك وائلُ

وكقول الشاعر :

منْ يكنْ رام حاجةً بَعُدت عنـ ـه وأعْيَتْ عليه كلَّ العياءِ

فلها أحمدُ المرجَى ابنُ يحيى بن معاذِ بنِ مسلمِ بن رجاءِ

وكقولك فى نسب الإمام زين العابدين هو :

على بن الحسين بن على بن أبى طالب .

ومن ذلك قول الرسول ﷺ : " الكريمُ ابنُ الكريمِ ابن الكريمِ : يوسفُ بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم " .

---

(٢) بديع القرآن ١٤١ ، التحرير ٣٥٢ ، الطراز ٩٣/٣ ، حسن التوسل ٢٨٤ خزانة الأدب ١٦٠

وقد ورد الإطراد فى القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ يوسف ٣٨ .

وفى هذه الآية لم يبتدئ بالأدب الذى جاء من صلبه ثم بالأعلى فالأعلى كما هى القاعدة ، لأنه مجرد ذكر الآباء ، وإنما أراد أن يذكر الملة التى اتبعها ، وهى الملة الحنيفية التى ابتدأها إبراهيم عليه السلام ثم يذكر من أخذها عنه على الترتيب ، فاقتضت البلاغة ذكر إسحق بعد إبراهيم ، ويعقوب بعد إسحق .

ومثل ذلك ما حكاه سبحانه عن أولاد يعقوب عليهم السلام بقولهم : ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ البقرة ١٣٢ وتخريجه الآية السابقة .

أما ذكر الأمهات والجدات فليس محمودًا عند البلغاء وأهل العلم بشعر المدح ، لما فيه من إنزال قدر الممدوح ، وإنما كان هذا مكروهًا ، لأن شرف الإنسان إنما يكون بالرجال لا من جهة النساء .

وقد عيب على أبى نواس فى مدحه لمحمد بن الأمين ذكره لأمه فى مدحه حيث قال :

أصبحتَ يا ابنَ زُبَيْدَةٌ ابنة جعْفَر أملاً لعَقْدِ حِباله استِحْكَامُ

فإن هذا قبيح فى مثل هذا المقام .

وكذلك قوله :

وليس كجدَّتَيه أمَ موسى إذا نُسَبتْ ولا كالخَيْزرانِ

وصفى الدين الحلى له تعريف آخر للإطراد وهو :

ذكر اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة به ، واسم من أمكن من أبيه وجده وقبيلته ، فى بيت واحد بلا تعسف ، ولا انقطاع بألفاظ أجنبية كقول بعضهم :

مـؤيّد الديـن أبـو جـــعْفَر   محمد بن العَـلْقَمِى الوزيـــرِ

فهذا البيت جمع فى الناظم بين اللقب والكنيـة واسـم الممـدوح واسـم أبيـه والصفة اللائقة به .

وما ذكر الحلىّ ليس بالمشهور .

* * *

حسن النسق

وهو من محاسن الكلام ، وهو أن تأتى الكلمات متلاحمة مستحسنة ، لامعيبة ولا مستهجنة . وذلك كقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِىَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هود ٤٤ .

فهذه الجمل عطفت بعضها على بعض على الترتيب التى تقتضيه البلاغة . فبدأ بالاهم وهو انحسار الماء عن الأرض فأمرهما بالابتلاع ، ثم أمر السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع ، لأن الأرض إذا ابتلعت الماء ولم ينقطع الماء من السماء تأذى بذلك أهل السفينة ، ثم أمر بعد ذلك بغيض الماء ، فاقتضى بذلك أن تكون ثالث الجمل ، ثم قال تعالى : ﴿ وقضى الأمر ﴾ ، أى هلك من هلك ونجا من نجا ، وذلك لا يكون إلا بعد خروجهم من السفينة ، وهذا يقتضى أن تأتى هذه الجملة فى المرتبة الرابعة ، ثم استواء السفينة على الجودى ، أى استقرت لتظل آثارها باقية لمن يأتى بعد أهلها، ثم احترس بقوله : ﴿ فبعدًا للقوم الظالمين ﴾ حتى لا يظن أن الهلاك قد شمل من لا يستحق . فانظر إلى حسن هذا النسق وكيف وقع القول منه وفق الفعل سواء بسواء .

ومن ذلك قول ابن شرف القيروانى :

جاورْ عليًّا ولا تحفل بحادثة	إذا ادّرعت فلا تسأل عن الأسَلِ
سلْ عنه ، وانطق به ، وانظر إليه تجد	ملء المسامع والأفواهِ والمقل

وقد جاء حسن هذا النسق من صحة الترتيب ، واستيعاب التقسيم ، ووضوح التفسير .

وكقول أبى نواس :

وإذا جلست إلى المُدام وشربها	فاجعل حديثك كلّه فى الكاسِ
وإذا نزعت عن الغواية فليكنْ	لك ذاك النزعُ لا للناس

فقد لاءم بين المجون الذى يتمثل فى البيت الأول والزهد فى البيت الثانى حتى صارا كأنهما فن واحد .

الترقى :

هو أن نذكر معنى ثم نردف عليه ما هو أبلغ منه ، كقولك فلان نحرير وشجاع باسل ، وجواد فياض .

فالمعطوف أبلغ من المعطوف عليه . فالعرب تفخر بالجود أولاً ثم بالشجاعة ثانياً ثم بالعلم ثالثاً .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ... ﴾ الحشر ٢٤.

أى خلق الأشياء فميزها ثم مثلها ، فعطف الأدق على غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى ... ﴾ البقرة ١٢٠.

أى لن يرضى عنك الأقربون الذين هم أكثر مودة وهم النصارى فكيف بمن هو أبعد وهم اليهود .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ... لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ البقرة ٢٥٥ .

لأنه إذا لم تأخذه السنة فكيف يأخذه النوم ، فإذا لم تأخذه السِّنة فمن باب أولى أن لا يأخذه النوم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا ﴾ الإسراء ٢٣.

أى لا تقل عند الضجر " أف " فضلاً عما يزيد عليه وهو النهر ، فقال ﴿ ولا تنهرهما ﴾ تأكيدًا للنفى .

الافتنان :

أن يأتى المتكلم بفنين متضادين من فنون الكلام فى جملة واحدة أو بيت واحد كالوعد والوعيد ، كقولة تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ مريم ٧٢ .

أو التعزية والفخر ، كقوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ الرحمن ٢٦ - ٢٧ .

أو التعزية والتهنئة كقول أبى نواس للعباس بن الفضل بن الربيع يعزيه بالرشيد ويهنته بالأمين :

تعز أبا العباس عن خير هالك ... بأكرم حى كان أو هو كائنُ
حوادث أيام تدور صروفها ... بهنّ مساوٍ مرة ومحاسنُ
وفى الحى بالميْت الذى غيّب الثرى ... فلا أنت مغبون ولا الموت غابن

ومن ذلك ما قاله أبو دلف العجلى ليزيد بن معاوية يعزيه فى وفاة والده ، يهنته :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة ... واشكر حِباءَ الذى بالمُلْك أصفاكا
لا رزء أصبح فى الأقوام نعلمُه ... كما رزئتَ ولا عُقبى كعقباكا

أوبين النسيب والحماسة كقول عنترة(١) .

إن تغدفى دونى القناع فإننى ... طَبٌّ بأخذ الفارس المستلئم

التسميط :

أن يقسِّم الشاعر بيته إلى أربعة أقسام ، ويراعى السجع فى الأجزاء الثلاثة الأولى منها ، أما الجزء الرابع وهو القافية فيأتى على خلاف الأقسام الأولى ، فمن ذلك قول الشاعر مروان بن أبى حفصة :

هم القومُ إن قالوا أصَابُوا وإن دُعُوا ... أجابُوا ، وإن أُعْطوا أطابوا ، وأجْزَلُوا

(١) تغدف المرأة قناعها : ترسله على وجهها / طب : حاذق ماهر ، المستلئم : أى لبس الفارس ما عنده من لأمة وعدة الحرب .

فالأجزاء الثلاثة الأولى مسجوعة بالباء : أصابوا ، أجابوا ، أطابوا ، أما الرابعة فهى مختلفة حيث جاءت القافية باللام .

وقول الحريرى فى المقامة البصرية :

كم ليلةٍ أودعتُها ، مآثمًا أبدعْتُها لشقوة أطعْتُها ، فى مرْقَدٍ ومَضْجَع

وكم خطًا حثثتُها فى خِزيةٍ أحدثتُها وتوبةٍ نكثتها ، لمْلعبٍ ومَرْتَعِ

فالفقرات الثلاث الأولى فى كل بيت مسجوعة ، أما الرابعة فجاءت على خلافها .

وهذا يدل على براعة الشاعر فى اختيار مفردات شعره وتناسقها على وتيرة واحدة ، ما عدا الأخيرة منها ، والشعر الذى من هذا القبيل يكون كالخرز المنظوم.

وسمى هذا النوع بالمسمَّط أو التسميط ؛ لأن أشطاره مقفاة بقافية واحدة ، ثم يُؤتَى بعدها بشطر مقفى بقافية مخالفة ، ويستمر الشاعر على هذه القافية المخالفة فى جميع أبيات القصيدة حتى تنتهى .

الغلو فى الوصف :

أن يصل المتكلم إلى أقصى غاياته فى الضعف أو القوة حين يعبر عن صفة من الصفات، وأن يبذل ما بوسعه وطاقته فىذلك بحيث لا يكون هناك مزيد على ما وصل إليه.

كقول السيدة سكينة بنت الحسين بن على - كرم الله وجهه - حين زينت بينتها وألبستها ثوبها الذى أبدى حسنها .

" وا لله ما ألبسته إياها إلا لتفضحه "

فهى أجمل من الثوب الذى ترتديه ، وإذا لبست هذا الثوب افتضح أمره ؛ لأنه قبيح إذا قيس بجمالها الباهر .

وكقول المرغيتانى :" وصل كتابك فكان أخف علىَّ من جناح بعوضة ، وأدل شيء على وُدٍ مرفوض وعهده منقوض " .

أى إن كتابك الذى أرسلته إلى ليس له قيمة ، و لم أعبأ به ، وقد استقبلته بحب مفقود وعهد منقوض .

أو تقول : " فلان لا فى العير لا فى النفير ، أو إنه أنقص من لا شىء .

أوتقول كما قال أمرؤ القيس :

من القاصراتِ الطرفِ لوْ دبَّ مُحْوِل　　من الـذّرّ فـوق الأتْب منهـا لأثّـرا

أى لو دبت نملة لم يحل عليها العام فوق قميصها الشفاف لأثرت فى جلدها لرقتها ونعومة إهابها .

أو قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا إننى رجـلٌ　　لـولا مُخاطَبتى إيـاكَ لَمْ تـرنى

أى إنه بلغ الغاية فى شدة النحول ، ولولا كلامى لم يستطع أحد أن يتبين جسمى ، وإنما يستدل على وجودى بصوتى .فهل ترى مبالغة أشد من هذه المبالغة فى وصف الهزال والضعف والنحول .

وكقول القائل : من كثرة ما يشير إليك الناس بالبنان ، أخشى أن يبقى أثر إشارتهم على صفحة وجهك البهىّ .

أو تقول : أخاف أن تنتزع بطرف رمحك الخال الذى على وجه الحبيب .

أو كقول الشاعر حين يصف محبوبته بإشراف الوجه وأمتلاء الجسم .

مـن رأى مثـل حُبتـى　　تشبه البـدر إن بـدا
تـدخلُ اليومَ ثم تـدخلُ　　أردافُهـا غـدا

فهـذه مبالغات حسنة مقبـولة لا تأنف منهـا الطباع الحسـنة ، ولا تـترك فى النفس نفورًا أو تأففًا ، وإنما تقبلها النفس وتستطيبها .

تفسير الجلىّ :

يذكر الوطواط فى كتابة (حدائق السحر فى دقائق الشعر) هذا اللون مـن البديع ، والمراد به زيادة الإيضاح وتفسير المعنى الظاهر الذى لا يحتاج إلى تفسـير ، ومن ذلك قول الشاعر :

يُحيى ويُردى بجدْواهُ وصارِمِـه　　يحيى العُفاة ويُردى كلَّ من حَسَدَا

فكرر لفظتى (يحيى ويردى) فى الشطرة الثانية من البيت ، وكان يمكنه أن يكتفى بذكرهما فى الشطرة الأولى دون خفاء للمعنى . فهو يحيى بعطائه ويقتل بسيفه ولكنه أراد زيادة فى التوضيح وبيان من يقع له الإحياء ومن يشمل القتل ، فقال يحيى العفاة والسائلين وطالبى المعروف، ويقتل الحساد والأعداء والخارجين عن طاعته.

وكقول الشاعر الآخر :

يُعطى ويمنعُ : يعطى المالَ زائرةُ ... ويمنعُ الجار من ذلّ وإرهاق

فكرر كلمتى (يعطى ويمنع) ، وفى التكرار جاء تفسير وبيان كل منهما .

ومثّل الوطواط أيضًا ببيتين من الشعر الفارسى وترجمتهما : فالمليك إما يُقيِّد وإما يفتح ، وإما يأخذ وإما يعطى :

فيا رب اجعل هذا دأبه ما دامت الدنيا باقية . فالولايات هى ما يأخذها ، والرغبات هى ما يعطيها ، وأقدام الأعداء هى ما يقيّدها ، والقلاع هى ما يفتحها . فأطلق الكلمة أولاً دون بيان لمعناها ، ثم فسرها بما لا مزيد عليه.

السؤال والجواب :

وهو ضربان :

أحدهما : أن يكون بين اثنين كقول ابن الدمينة فى أميمة :

وأنتِ التى كلفتنى دلَج السُّرَى ... وسربُ القطا بالجلهتين جُثومُ

وأنت التى قطّعتِ قلبى حزازةً ... وفرقتِ قرْح القلب وهُو كَلومُ

فأجابت :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدْتنى ... وأشمتَ بى مَن كان فيك يلومُ

وأبرزْتنى للناسِ ثم تركْتنى ... لهم غَرضًا أُرْمى ، وأنت سليمُ

فلو أن قولاً يُكلِم الجسم قد بدا ... بجسمى من قول الوشاة كُلُوم

ومن ذلك قول بعض الفضلاء إلى الصاحب القُمِىّ :

أفـدى الذين بـوادى الجزع منـزلهم ... وإنْ هم نقضـوا العهـدَ الذى سـبقَا
مـا إسـلونى ولا راعـوا ، ولا كتبوا ... أظن مـا كان منهـم بالحَمـى مَلَقَـا

فأجابه :

وا لله مـا كان نقضُ العهـدِ لى خُلقا ... ولا رأى قـطّ منـى صـاحبٌ ملقَـا
بل كنت مـا كنت أُوفى بالعهود وإن ... خان الصديقُ ، وأمسـى حبله خلَقـا

وثانيهما : أن يحكى محاورة جرت بين اثنين كقول الصاحب بن عباد :

وقائلة : لم عـرتك الهمـومُ ... وأمـرك ممتَثَـلٌ فى الأمـمْ
فقلت : ذرينى على غُصتى ... فـإن الهمـوم بقـدر الهِمَـمْ

ومن ذلك أيضًا قول الشاعر :

وقائلة : خـلّ التصـابى لأهلهـا ... فإن الصبـا عنـد المشيب جنـونُ
فقلت لها : كفىّ عن اللوم واحضِرى ... لذيذ الكرى عنـد الصبـاحِ يكونُ

حسن المطلع :

أن يجتهد الشاعر بأن يجعل قصيدته رائقًا مطبوعًا لا كلفة فيه ، وأن يبدأ كلامه بما يتفاءل به لا بما يتطير منه ، حتى تميل إليه الأذن وتتبّع كلامه وتنشط لإدراكه :

كقول المتنبى فى عتاب سيف الدولة :

المجـدُ عُوفى إذْ عَوفيتَ والكرمُ ... وزال عنـك إلى أعـدائِكَ الألَمُ

وكقوله أيضًا :

عـدُوكَ مذمـومٌ بكل لسـانِ ... وإن كان من أعدائك القمرانِ

وقول شبل الدولة :

دع العيس تـزْرع أرضَ الفَـلا ... إلى ابن العـلاء وإلا فـلا

فلحسن المطالع أثر نافذ فى الممدوح فيهتز طربًا ويجود بما يريد المادح ويستجيب لآماله وأحلامه فى العطاء .

ومن ثَمّ لا يجوز للشاعر أن يبدأ بما يتطير منه .

كقول ذى الرّمة :

مـا بالُ عينك منهـا المـاءُ ينكسبُ　　　كأنه من كُلَىً مفرية سرب

وكقول البحترى :

لك الويلُ من ليلٍ تقاصَرَ آخره

وكقول المتنبى :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيًا

حسن التخلص :

أن ينتقل الشاعر أو الناثر من مقدمة كلامه إلى صلب الموضوع والغرض منه فينتقل من الغزل إلى المدح ، أو من النسيب إلى الوصف أو الاعتذار ، أو نحو ذلك على وجه يستطاب به الكلام ، ولا يشعر السامع بالإنتقال وأن فى الكلام فجوة بين المقدمة والغرض منه ، كقول المتنبى :

نودعُهم والبيْن فينا كأنه　　　قنا ابن أبى الهيجاءِ فى قلب فليق

فانتقل الشاعر من كلمات الوداع إلى ذكر شجاعة الممدوح الذى يغرس رمحه فى قلب فرسان الجيش .

فأبو الهيجاء هو والد سيف الدولة - والقنا : الرماح - والفيلق : كتيبة الجيش . يقول الشاعر : إن للعين فينا عند وداعنا لهم عملاً كعمل رماح سيف الدولة فى أعدائه ، فهذا الإنتقال من الوداع إلى الشجاعة من أحسن مواضع التخلص .

ومن أبرع المطالب وأحسنها قبولاً فى النفس قول أمية بن أبى الصلت :

أأذكرُ حاجتى أمْ قَدْ كَفانى　　　حياؤُك إنّ شيمتَك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرءُ يومًا　　　كفاه من تعرُّضِهِ الثناءُ

فالحاجات تتردد فى نفس الشــاعر ، لكن حياءه من الممـدوح يحتم عليه ألا يبوح بها ، وثناؤه على الممدوح يكفيه ، فالممدوح حىّ شيمته الحياء . وهو يحقق الرغبات حتى قبل طلبها .

حسن الخاتمة :

أن يجعل الشاعر خاتمة كلامه مستعذبًا مستملحًا ، مستعينًا فى ذلك بألفـاظ حلوة فصيحة وعبارات بليغة ، فأقرب شىء إلى السمع آخر الكلمات ، فإن كانت حسنة بقى الكلام لذيذًا سائغًا وما سبق من كلام نسيه السامع وإن كان رديئًا .

كقول المتنبى :

بقيتَ بقـاءَ الدهـرِ ياكهفَ أهلـهِ ... وهـذا دعـاءٌ للـبرّيـةِ شـاملُ

وقوله أيضًا :

قـد شـرّف الله أرضًـا أنْت ساكنُها ... وشـرّفَ الناس إذ سـوّاك إنسـانًا

وكقول أبى تمام :

أبقيْت بنى الأصـفر المصـفر كاسمِهم ... صـفْرَ الوجـود وجلّتْ أوجـهُ العـربِ

وكقول أحد شعراء الفرس يمدح السلطان :

لا أبعدنى الله عن جنابك، فإنّ الدنيا لا تجْلبُ ممدوحًا مثلَك، ولا الفلَك مدّاحًا مثلى.

إرسال المثل :

ومن صنعة البديع أن تدخل فى بيـت مـن الشـعر مثلاً يصبح مـن الأمثـال السائرة فتجرى على كل لسان ، كقول المتنبى :

بـذا قَضَتْ الأيـام مـا بـين أهْلِهـا ... مصـائبُ قـومٍ عنـد قـوم فـوائدُ

أى أن من عادة الزمان أن يُسر قوم بإساءة آخرين ، وما حدث فى الدنيا شىء إلا سُر به قوم وسىء به آخرون ، والفقرة الثانية من البيت تردد على الألسنة وتجرى مجرى الأمثال ، وكقول أبى فراس :

تهـونُ علينـا فى المعـالِى نفوسُنا ... ومـن يخطِب العليـاءَ لم يُغْلِهـا المهْـرُ

عندما يكون المطلب عزيزًا ويصعب الوصول إليه ، تجد قومى يهون عليهم اللحاق به ؛ لأن نفوسهم قوية وآمالهم كبيرة ، وهممهم جياشة .

ثم يورد المصراع الثانى من البيت الذى سار مسرى الأمثال ، وهو أن من من يبغى الوصول إلى القمة لا يبالى ما يبذل فى تحقيق ذلك من جهد وتعب .

وكقول الوطواط :

عشِقْتُ وقلبى ضاع فى العِشْق سِرُّهُ وفى أى قلب يُجمعُ العشقُ والسِّرُّ

أى أن الذى يعشق لا بد أن يظهر عشقه مهما حاول كتمانه ، فأى قلب مهما كان حريصًا على ألا يبوح بعشقه ، لا بد أن يبدو للعاذلين ، فالسر والعشق لا يجتمعان .

ومثل ذلك قول زهير :

فلا تكتُمنّ الله ما فى نفُوسِكمْ ليخْفَى ومهما يُكتَم الله يَعْلَمِ

إرسال المثلين :

أن يذكر الشاعر فى شعره مثلين زيادة فى إبراز خبرته بالناس وتجربته مع الأحداث كقول لبيد :

ألا كلُّ شىءٍ ماخلا الله باطل وكلُّ نعيم لا مَحالةَ زائلُ

فكل ما عدا الله جل جلاله زائف وغير حقيقى ، فهذا مثل ، والشطرة الثانية من البيت مثل آخر ، فكل نعيم على ظهر الأرض لن يدوم وإنما مصيره الزوال والانقراض . فمثلان فى بين واحد من الشعر تبين مدى نظرة الشاعر للكون والأشياء ، وما هو صحيح منها وما هو زائف . وقول المتنبى :

أعزّ مكان فى الدنا سَرْجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ فى الزمانِ كتابُ

حيث جعل سرج فرسه أعز مكان لأنه يبلغ بواسطته لقاء الملوك والأحباب ومحاربة الخارجين والأعداء . والكتاب أيضًا خير من يجلس إليه ويتزود بما فيه من

معلومات ، فإنه يقص عليه أنباء الماضين وأخبار المحدثين . وهذا البيت سار مسرى الأمثال ويمكنك أن تقيس على ذلك أبيات زهير :

ومَن يغترِبْ يحسبْ عدوا صديقه ومن لا يكرّم نفسَهُ لا يُكرَّمِ
ومن لا يَذُد عن حوضه بسِلاحِه يُهدّم ومنْ لا يظْلم الناس يُظلَم
ومنْ يجعلْ المعْروف مِنْ دُون عِرْضِه يفِرهُ ومنْ لا يتّق الشّتْم يُشْتَمِ(١)

الكلام الجامع :

وأحيانًا يكون البيت كله جاريًا مجرى المثل ، والشعر العربى به كثير من الأمثلة التى تدل على ذلك ، كقول زهير :

ومهما تكنْ عند امرئ مِن خَليقةٍ وإن خالها تَخْفَى على الناس تُعْلَمِ

وكقول المتنبى :

ومِن نكَدِ الدنيا على الحرّ أن يرى عدوًّا لهُ ما من صداقته بدُّ

فمن قلة خير الدنيا أن الحرّ يحتاج إلى إظهار صداقته لعدوه ليأمن شره ويدفع غائلته .

وكقوله أيضًا :

والظلْم من شِيمِ النفوس فإن تَجدْ ذاعفّة فِلعلّةٍ لا يَظْلمُ

الظلم خليقة وطبع فى النفوس قد جبلت عليها ، وإن رأيت عفيفًا يكف عن الظلم ، فإنما كفّ لعلة وسبب .

وقول أيضًا :

ومن البَلّيةِ عذْل من لا يرْعوى عن جَهْلِه وخطاب من لا يَفْهمِ

(١) يفره : يجعله وافرًا . ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه : أى من لا يدافع عن قومه يذلّ ويكسر . ومن لا يظلم الناس : من يكن ضعيفًا مهينًا يظلم .

من البلايا التى يبتلى بها المرء أن يعذل الجاهل ويلومه ، وهو لا يرجع عن غيته ولا يقلع عن جهله ، وكذا إذا خاطبت من لا يفهم مغزى كلامك ولا القصد منه .

فالبيت كله جامع لهذا المثل ، وكذا الأبيات السابقة عليه .

الترصيع :

أن يقسِّم الكاتب أو الشاعر العبارات إلى أقسام منفصلة ، وكل لفظ يتفق وما يقابله فى الوزن والحرف الأخير :

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ الغاشية ٢٥ ، ٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ الانفطار ١٣ ، ١٤.

وفى الحديث : " اللهم اقبل توبتى ، واغسل حَوْبتى(١) " .

وقولهم : العاقل يفتخر بالهمم العالية ، لا بالرمم(٢) البالية .

وقولهم : من أطاع غضبه ، أضاع أدبه .

تجد فى الآية القرآنية وفى الحديث النبوى وفى قول البلغاء كل لفظة تتفق مع ما يقابلها فى الوزن والحرف الأخير من الكلمات ، " فالأبرار " على وزن " الفجار " ، و" نعيم " و" جحيم " على وزن واحد والميم فى آخر الكلمتين ، وكذلك إيابهم و" حسابهم " ، وفى الحديث أيضًا ترى الاتفاق من التام بين الكلمات وزنًا وحرفًا " اقبل واغسل " ، " وتوبتى وحوبتى " . وما رأيته فى الآيتين من القرآن والحديث النبوى ، تراه فى كلام البلغاء . " الهمم والرمم " ، " والعالية والبالية" ، " وأطاع وأضاع " ، " وغضبه وأدبه " .

هذا التماثل والاتفاق بين الألفاظ وزنًا وسجعًا يضفى على العبارة حسنًا وجمالاً يزينها ، ولكنك إذا لم تلجأ لهذا الطريق أصبح الكلام خاليًا من الجمال ، ولم يكن فيه أكثر من إفادة المعنى . أما حسن العبارة وجمالها ، فلن تجد منه شيئًا.

---

(١) اغسل حوبتى : طهر إثمى .

(٢) الرمم : العظام البالية .

ويمكنك أن ترى مثل ذلك فى قول أبى فراس الحمدانى :

وأفعـاله فى بالراغبـين كريمـة　　　وأمـوالـه للطالبـين نهـاب

فى كلمتى الراغبين والطالبين .

وإذا اقترن الترصيع بالتجنيس بلغ شأوًا آخر ، ومكانة أعلـى ، وشأنًا أرفع كقول الشاعر :

قـد وطئتْ الدهمـاءَ أعقابهُم　　　وخشيت الأعـداءُ أعقابهـم

وقول الشاعر :

واقتحـام الأهـوال مـن وقت حـام　　　واقتسـام الأمـوال من وقت سـام

تجد كل كلمة من المصراع الأول تتفق مع ما يقابلها فى المصراع الثانى .

وكذلك الشأن إذا قلت :

الصديق منجذب ، والحبيب مضطرب

ترى أن سبب الحسن فى العبـارة مـا فيهـا مـن تـلاؤم وسلاسـة فـى التعبـير وسهولة فى الأداء .

المدح الموجّه :

أن يمدح الشاعر ممدوحه بصفة من الصفات ثم يعقب عليها بصفة أخـرى ، فيكون مدحًا على مدح ، وإذا تضافرت صفات المدح علـى الممـدوح كـان ذلـك أكثر أبّهة وأعظم ثناء ، كقول المتنبى :

نهبتَ من الأعمارِ ما لوْ حويته　　　لهُنّئتْ الدينـا بأنّكَ خـالِـدُ

فهذا من أحسن ما مدح به ملك ، فهو مديح ذو وجهين ، فقد مدحـه فـى المصراع الأول بالشجاعة وكثرة قتل الأعداء ، وفى المصـراع الثـانى صفـة أخـرى للمدح حيث جعله جمالاً للدنيا ، فتهنأ الدنيا ببقائه فيها .

والمدح فى هذا البيت من عدة وجوه :

أولاً : وصفه بنهب الأعمار لا الأموال .

ثانيًا : أنه أكثر من قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم خلد فى الدينا .

ثالثًا : أنه جعل فى خلوده صلاحًا للدنيا وأهلها .

رابعًا : أنه لم يكن ظالمًا فى قتلهم ؛ لأنه لا يقصد من وراء ذلك إلا صلاح الدنيا ، فهم مسرورون بذلك ، ويهنأ أهل الدنيا ببقائه على قيد الحياة.

يقول ابن جنى العالم اللغوى الشهير : لو لم يمدح المتنبى سيف الدولة إلا بهذا البيت لكفاه فخرًا ، لا يستطيع الزمان أن يبلىَ جدته .

وقول المتنبى أيضًا :

عُمْرُ العدُوِّ إذا لاقاه فى رَهَج أقلُّ مِن عُمْرِ ما يَحوىِ إذا وهَبا

أى إذا لقى العدو فى غبار الحرب قصّرعمره ، حتى يكون أقلّ من بقاء المال عنده إذا بذل العطاء . فعمر العدو قصير ، وعمر المال قريب ، ما يكاد يدخل إليه حتى يهبه . فمدحه أولا بوفرة الشجاعة ، ومدحه ثانيًا بوفرة السخاء .

وقوله أيضًا :

تُشْرِق تيجانه بُغرَّته إشْراقَ ألفاظه بمعناها

مدحه أولا بإشراق طلعته ومدحه ثانيا بفصاحة عبارته .

فإذا لبس التاج وارتفع على رأسه اكتسب التاج إشراقة من إشراق وجهه ، كما تشرق ألفاظه بمعانيها ، فإذا كثرت أوصاف المدح كان ذلك أدعى إلى تقدير الممدوح وأنه حائز على صفات المدح الكثيرة .

توالى الأسماء والأعداد :

أن يأتى الشاعر أو الناثر فى كلامه بأسماء مفردة تجرى على نسق واحد ، وكل منها له معنى مستقل عن الآخر . كقول المتنبى :

فالخيلُ والليلُ والبيْداء تعْرفنى والطعْنُ والضرْبُ والقرطاسُ والقلَمُ

هذه الأشياء لا تنكر الشاعر ، وإنما تعرفه حق المعرفـة ، فهـو شـجاع جلـد وشاعر أديب ، لا يخاف البيداء ، وإنما يستسهل السير فيها ليلاً حيث يخشى النـاس من المضئ فيها. فكل كلمة فى هذا البيت لها معنى مغاير للأخـرى ، فتمنحـه كـل لفظة فى البيت معنى ووصفًا جديدًا، وبذلك يتم له عدد من الصفات التـى يفخـر بها على غيره .

وكذلك حينما تقول : كل ما أملكه مـن جسـد وروح ، ونفـس ومتـاع ، وزوجات وأولاد ، وأقارب وأصهار ، جميعهم فداء لمولاى .

أو تقول : فلان نادرة الزمان ، وواسـطة عقـد الأقـران ، مـن حيـث العلـم والحلم ، والنسب والحسب ، والرشاد والسداد ، والكفاية والهداية .

وفى المثال الأخـير تلحـظ الازدواج والجنـاس فـى الجمـل ممـا يضفـى علـى الأسلوب جمالاً ورقة وروعة .

تنسيق الصفات :

أن يذكر الكاتب أو الشاعر مجموعة من الصفات يتبع بعضها بعضا :

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِـينَ وَالْمُتَصَدِّقَـاتِ وَالصَّـائِمِينَ وَالصَّائِمَـاتِ وَالْحَـافِظِينَ فُرُوجَهُـمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًـا ﴾ الأحزاب ٣٥.

وأيضًا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّـازٍ مَشَّـاءٍ بِنَمِيـمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ القلم ١٠ - ١٣ .

وقول الرسول ﷺ : " ألا أخبركم بـأحبّكم إلىّ وأقربكـمْ منـى مجالسًـا يـوم القيامة : أحاسِنُكم أخلاقًا ، الموطأون أكنافًا ، الذين يألفون ويؤلفون ... " .

وقولهم : فلان حسنُ السيرة ، نقىّ السريرة ، طيِّب الأعراق ، كريم الأخلاق، ظاهرُ النسب ، زاهر الحسب ، حميد الشمائل ، كثير الفضائل .

وقول الشاعر :

بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أنسابُهم   شُمّ الأنوف من الطّرازِ الأوّلِ

ولا شك أن هذه الصفات المتتابعة تضفى على التعبير قوة وجمالاً ، وتعطى للمعنى وضوحًا وتأكيدًا ، وهو ما يلجأ إليه الشاعر أو الناثر .

الإبداع :

وهو أن يخترع المتكلم معانيغير مسبوق إليها .

يقول عبد الحميد الكاتب : " خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ، ومعناه بكرًا " .

وهو ضربان :

الأول :ما يبتدع عند الحوادث المتجددة ومن ذلك ، كان الفخر الرازى يجلس للوعظ إذ أقبلت حمامة وخلفها صقر ، فألقت نفسها فى حجر الإمام .

فقال ابن عنين :

جاءت سليمانَ الزمانِ حمامةٌ   والموتُ يلمح من جَناحى خاطف
من نبأ الورقاءَ أن محلكم   حرَمٌ وأنك ملجأ للخائفِ

ومن ذلك أيضًا ما أنشده المتنبى فى سيف الدولة وهو يزهو بنفسه ، وأن الخلة إذا رأته فرت وهربت ، فالأشياء العظيمة تصغر عنده لكبر همَّته .

رأى خَلّتى من حيثُ يَخفى مكانُها   فكانت قَذّى عينيه حتى تجلّتِ

وقول الشاعر :

جاءنا فى الظلام يطلب سِتّرا   فافتضحنا بنوره فى الظلامِ

وقول أبى تمام فى المعتصم :

إقدام عمرو فى سماحةِ حاتم   فى حِلم أحنفَ فى ذكاءِ إياسِ

قال الكندى وكان حاضرًا : أمير المؤمنين أكبر من ذلك، فقال أبو تمام بداهة :

لا تنكروا ضربى له مَن دونه ... مثلاً شرورًا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاةِ والنبراس

فتعجب الحاضرون من فطنته وذكائه .

الثانى :ما يبتدع من غير حادثة أو شاهد حال ، والمتنبى هو العلم فى ذلك يقول :

كتمت حبَّكِ حتى منك تكرِمة ... ثم استوى فيك إسرارى وإعلانى
كأنه زاد حتى فاض عن جسَدى ... فصار سقمى به فى جسم كتمان

أى صار سقمى باحب فى جسم الكتمان ، أى سقم كتمانى ، فصح الاستواء .

وقول الأخطل فى الخمر :

تدب دبيبًا فى العظام كأنما ... دبيب نمال فى نقًا يتهيَّلُ

وقول بعض المغاربة فى الخمر أيضًا :

ثقُلت زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغًا ... حتى إذا مُلئت بصرف الرّاحِ
خفّت وكادت أن تطير بما حوت ... وكذا الجسوم تخفّ بالأرواح

الفصل الثاني

المحسّنات اللّفظيّة

من المحسنات اللفظية : الجناس :

وهو تشابه الكلمتين فى اللفظ ، واختلافهما فى المعنى .

وفائدته : الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها ؛ ولأن اللفظ إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوق إليه . وهو من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله ، بل هو من الكلام كالغرّة فى وجه الفرس .

والجناس أنواع متعددة نذكر أهمها :

١ – الجناس المستوفى التام :

أن يأتى المتكلم بكلمتين متفقتين لفظًا ، مختلفتين معنى ، لا تفاوت فى تركيبهما ولا اختلاف فى حركاتهما . سواء كانا من اسمين ، أو فعلين ، أو من اسم وفعل ، أو اسم وحرف .

فإن كانا من نوع واحد سمى جناسًا مماثلاً .

وإن كانا من نوعين مختلفين سمى جناسًا مستوفيًا .

وهذا النوع من أكمل أصناف التجنيس وأرفعها رتبة وأولها فى الترتيب . مثال ذلك من القرآن الكريم : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ الروم ٥٥ فالمراد بالساعة الأولى : يوم القيامة ، وبالثانية : الساعة الزمنية.

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ ﴾ النور ٤٣ ، ٤٤ .

فالأبصار فى الآية الأولى معناها الأنظار ، وفى الثانية معناها العقول .

ومن ذلك قول المعرّى :

معـانيك شـتّى والعـبارةُ واحـدَة   فطـرْفك مُغْـتَالٌ وزَنـدَك مغْـتَال

فمغتال الأولى بمعنى مهلك ، والثانية بمعنى ممتلئ .

وقول الشاعر :

مضى عصـرُ الشبابِ كلمحِ بـرْقِ   وعصْـرُ الشـيبِ بالأكـدار شِـيبا
وما أعـددتُ قـبلَ المـوْتِ زادًا   ليـوم يجـعل الـولدان شِـيبا

فكلمة شيبًا فى البيت الأول فعل بمعنى تكدر ، وفى البيت الثانى وصف بمعنى بياض الشعر .

وأمثال هذا النوع كثير كقول عبد الله بن طاهر :

وإنـى للثّغـر المخـوف لكالـئٌ   وللثّغْـر يجْـرى ظَلْمُـه لَرشُـوفُ

فالمراد بالثغر الأول الثغرة التى يمكن للعدو أن يفاجئ منها .

والمراد بالثغر الثانى فم الحبيب وريقه الذى يرشفه .

قال الحاتمى : " وهو أفضل تجنيس وقع لمحدث "(١) .

وقول أبى نواس :

عباسُ عباسٌ إذا احتـدمَ الـوغى   والفضـلُ فضـلٌ والربيـعُ ربيـعُ

فالأولى منها أسماء ، والثانية منها أوصاف .

ومنه قول الجاحظ يعاتب صديقًا له :

" يعاتب على حَرْف ، ويعيد المودة على حرف " .

---

(١) العمدة ٣٢٣/١

أى يعاتب على أتفه الأشياء ، ويعيد مودته بقدر يسير .

وكقولهم : " زائر السلطان الجائر كزائر الليث الزائر " .

فزائر الأولى معناها واضح ، والأخيرة بمعنى الزئير .

ووجه الحسن فى هذا النوع : حسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة .

٢ - الجناس المركب :

ومن الجناس التام نوع يسمى جناس التركيب .

وهو ما كان أحد لفظية مركبًا ، أو كلاهما :

وهو على ثلاثة أنواع :

الجناس المتشابه : وهو ما اتفق ركناه لفظًا وخطًا .

كقول ابن معصوم :

قف طالبًا فضل الإله وسائلاً ... واجعل فواضله إليه وسائلا

" وسائلا " التى فى الفقرة الأولى من البيت مركبة من كلمتين ومعناها السؤال .

" وسائلا " التى فى الفقرة الثانية من البيت كلمة واحدة ومعناها الوسيلة .

وهما متشابهتان لفظًا وخطًا .

ومنه قول شمسويه البصرى :

ناظراه فيما جنى ناظراه ... أوْ دَعانى أمُت بما أودَعانى

" أودعانى " تكررت فى البيت ، ولكنها فى الأولى مركبة من حرف العطف والفعل " أودعانى " بينما " أو " فى أودعانى الثانية من بنية الكلمة .

ومثل ذلك قول الشاعر :

طار قلبى يوم ساروا فَرِقًا ... وسواء فاض دمعى أو رَقَا

حار فى سقمى من بعدهم ... كلٌ من فى الحىِّ داوى أو رقى

بعدهم لا ظل وادى المنحنى ... وكذا بان الحمى لا أورقا

وقول الآخر :

رب سفيه جليسُ سـوء ... مفـترس عرضنـا بنـابهْ
يقـدح فينا بكل سـوء ... وكل مـا قـاله بنـابـهْ

وكقول الشاعر :

تفـرق قـلبى فـى هــواه فعــنده ... فريـقٌ وعنــدى شــعبةٌ وفريــقُ
إذا ظمئت نفســى أقول له اسقنى ... وإن لم يكــن مـاءٌ لـديـك فريــقُ

فريق الأولى كلمة واحدة ، وفريق الثانية مركبة .

الجناس المفروق : وهو ما تشابه ركناه لفظًا لاخطًا ، وسمى مفروقًا لِافتراق الركنين فى الخط . كقولهم : كنت أطمع فى تجريبك ، ومطايا الجهل تجرى بك .
وكقول القمّى :

مـات الكـرام وانقضـوا ومضـوا ... ومـات فى أثـرهم تلك الكرامـات
وخـلفونى فـى قـوم ذوى سـفهٍ ... لو أبصـروا طيفَ ضيفٍ فى الكرى ماتوا

" الكرامـات " فـى البيـت الأول و" الكـرى مـاتوا " فـى البيـت الثـانى متشابهتان فى اللفظ ، مختلفتان فى الخط .

وقول الآخر :

لا خـير فـى العـلم إذا لم يكن ... حـظ مـن المـال أو الجـاه لى
والعـلم إن لـم أك ذا ثـروة ... أنزلنـى مـنزلةَ الجـاهلِ

وقول الآخر :

نيسابورَ سـادات كـرام ... تـرى أحلامهم أحلامَ عادٍ
إذا بـدأوا بعرف تممـوه ... وعـادوا بعـده أحلى معادٍ

الجناس المرفوّ :

وهو ما كان أحد ركنيه مستقلاً ، والآخر مرفوًا مـن كلمـة أخـرى ، أى مركبًا من كلمة وبعض كلمة ، حتى يعتدل ركنا التجنيس كقولهم : " يـا مغـرور

أمسك ، وقس يومك بأمسك " أمسك الأولى كلمة واحدة ، والثانية مركبة من مضاف ومضاف إليه ، وهما كالكلمة الواحدة .

وقول الهمذانى:"إن لم يكن لناحظ فى دَرْك درّك، فخلصنا من شرك شرك".

ووجه حسن الجناس التام سواء أكان مركبًا أم غير مركب هو : حسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة .

٣ - الجناس المحرف :

وهو ما اتفقت فيه الحروف بين الكلمتين ، إلا أن إحداهما تخالف الأخرى فى الهيئة ، أى فى الحركة فقط ، أو فى الحركة والسكون ، فالأول كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ الصافات ٧٢،٧٣.

وقول معاذ رضى الله عنه : " الدِّين يهدم الدَّين " .

وقولهم : " لا تنال الغُرر إلا بركوب الغَرر " .

وكقولهم : " الصديق أول العَقدِ وواسطة العِقدِ " .

وقول الأهوازى : " أعيا الناس من أطال الخُطبة وأساء الخطبة " .

ومثاله من الشعر قول المعرِّى :

لغيرى زكاة من جمال ، فإن تكن زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل

وقول الشاعر :

فقلت للائمى أقصر فإنى سأختار المَقام على المُقام

ومثال ما كان الإختلاف فيه فى الحركة والسكون معًا قول الرسول ﷺ " اللهم كما حسَّنت خَلْقِى فحسِّن خُلُقى " .

وكقول الشاعر :

ظننت به الجميل فجُبت أرضًا إليه كهمتى طولاً وعرضًا

فلما جئته ألفيتُ شخصًا حمَى عَرضًا له وأباح عِرْضًا

ومن هذا النوع قولهم : البدعةُ شَرَكُ الشِّرْك . "

الجهول إما مُفْرِط أو مُفَرِّط .

٤ – الجناس المصحف :

ويقال له تجنيس الخط أيضًا ؛ لتماثل الكلمتين في الحروف واختلافهما في النقط .

كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف ١٠٤)
﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴾ (الشعراء ٧٩)
﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (الجن ٢٢)
وقوله ﷺ : " عليك بالأبكار ، فإنهن أشد حُبًا وأقل خِبًّا " أى خداعا .

وقوله لعلى كرم الله وجهه : " قصر من ثيابك فإنه أتقى وأنقى وأبقى "
وقول عضد الدولة إلى أفتكين التركى ، وهى كلمات لا تقرأ إلا بعد الشكيل :

" غرّك عِزُّك ، فصار قُصَار ذَلِكَ ذُلَّك ، فاخْشَ فاحشَ فِعْلِك ، فَعَلَّك بِهَذَا تَهْدَا ".

وقول بعض السلف :

" لو كنت تاجرًا ما اخترت غير العِطر ، إن فاتنى ربحه ، لم يفتنى ريحه " .

وقولهم : " أجهلُ الناسِ من كان للأخوان مذلاً ، وعلى السلطان مدلاً " .

وقول البستى : " إذا ما بقى ما قاتك ، فلا تأسف على ما فاتك " .

وقوله : " طوبى لمن عقله يغنيه عما لا يعنيه " .

وقول الباخرزى : " العذْلُ على البذْلِ فعْلُ النذْل " .

ومن ذلك : " فملْت لمحاورَته إلى مُحاورته ، ولا يزكُو بالحَيفِ من يرْغبُ فى الخَيْفِ " .

" ومَنْ أحسنَ الِاختبار أحسن الِاختيار " .

ومن الشعر قول أبى فراس :

مِن بحْر شعِرك أغترفْ　　　وبفضـلِ علْمِك أعترفْ

وقول البحترى فى مدح المعتز بالله :

ولم يكن المغترُّ بالله إذ شرى　　　ليعْجِـزَ والمعتـزُّ بالله طالبُـهْ

وإنما لقب هذا النوع بالمصحف ، لأن من لا يفهم المعنى ، فإنه يصحف أحدهما إلى الآخر ، لأجل تشابههما فى وضع الخط كما ترى(١) .

٥ - الجناس الناقص :

وإن اختلف اللفظان فى عدد الأحرف فقط سمى ناقصًا . وقد تكون الزيادة بحرف واحد سواء كانت فى أول الكلمة أو فى الوسط أو فى الآخر .

مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ وَالْتَفَّتْ السَّاقُ بالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ القيامة ٢٩ ، ٣٠ بزيادة الميم فى الأول ، ومن ذلك ما وقع فى الحريريات :

يسخو بموجودهْ ، ويسمو عند جُودهْ .

ومثال ذلك شعرًا :

لم يبـقَ صـافٍ ولا مُصـافٍ　　　ولا مَعـينٌ ولا مُعـينُ

فلم يختلف صاف ومصاف إلا بزيادة الميم فى أوله .

ومن ذلك ما أنشده عبد القاهر الجرجانى :

وكم سـبقتْ إلىّ عـوارفٌ　　　ثنـائى من تـلكَ العوارف وارفُ

وكم غُـرَرٍ مـن بِـرّه ولطـائفٍ　　　لشكرى على تلك اللطائف طائفُ

---

(١) الإتقان ٩١/١

ومثال الزيادة فى الوسط : جَدِّى جَهْدِى .

ومثال الزيادة فى الآخر :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ النحل ٦٩ .

وقولهم : " فلان سالٍ من أحزانه ، سالمٌ من زمانه ، حامٍ لعرضه ، حاملٌ لغرضه " .

وكقولهم " فلان حامٍ حامل لأعباء الأمور ، كافٍ كافلٌ بمصالح الجُمهورْ".

ومن ذلك قول الشاعر :

أرانى اليومَ للأحبـاب شـاكِ	وقُدْمًا كنتُ للأحباب شاكرْ
ومـا لى منهـم أصبحتُ بـاكِ	أباكـرُ بالمدامـع كلَّ بـاكـرْ
أذاقـونى عنـادًا طَعـمَ صـابٍ	وقالوا كنْ على الهِجران صابرْ
وها قلبى إلى الأحباب صاغٍ	يميل إلى رِضاهمْ وهْو صاغرْ
أحـنّ إلى لِقـاهُـم كلَّ عـامٍ	وأرجو وصْلَهم فى شِعب عامرْ

ووجه الحسن فى هذا النوع الذى تأتى فيه الزيادة فى الآخر ، أنك تتوهم قبل أن يرد عليك الحرف الأخير أنك تكرر الكلمة الأولى لمجرد التوكيد ، فإذا أتيت على آخر الكلمة انصرف عنك هذا الوهم وحصلت لك الفائدة بعد اليأس منها .

وقد تكون الزيادة بأكثر من حرف واحد ، كقوله تعالى :

﴿ وَانظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ ﴾ طه ٩٧ .

﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ القصص ٤٥ .

﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ البقرة ٦٢ .

﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴾ العاديات ١١ .

٦ – الجناس المضارع والجناس اللاحق[(١)] :

أن تختلف الكلمتان المتجانستان فى حرف واحد .

فإن كان الحرفان المختلفان متقاربين فى المخرج سمى جناسًا مضارعًا .

وإن كان الحرفان المختلفان غير متقاربين فى المخرج سمى جناسًا لاحقًا .

والمضارعة المشابهة ، لأن الكلمة تشبه أختها فى الصورة . مثال المضارع : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ ﴾ النساء ٨٣ . وقول الرسول ﷺ .

" الخَيْلُ معقودٌ بنوصيها الخَيْر : الأَجْرُ والمغُنم إلى يوم القيامة " .

فاللام والراء متقاربان فى المخرج .

وفى الحريريات : " لهم فى السيْر جرْى السيل ، وإلى الخيْر جرْى الخيْل " .

ومنه قول الحطيئة :

مطاعينُ فى الهيْجَا مَطاعيمُ فى الدّجى　　　بنَى لهم آباؤُهم وَبنى الجدُّ

وقول البحترى :

ظللْتُ أرجّم فيك الظّنُونَ　　　أحاجِمةُ أنتَ أم حاجِبةُ ؟

ومثال الجناس اللاحق قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ الهمزة ١ .

﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ العاديات ٧ ، ٨ .

ومن ذلك قولهم : " المكارمُ بالمكاره ، والتواضع شرَك الشرف " .

وفى الحريريات : لا أُعطى زِمامى لَمن يَخْفر ذِمامى ، ولا أغْرس الأيادِى فى أرضِ الأعادِى .

---

(١) الإتقان ٩١/١ – الطراز ٣٦٧/٢ – الأنوار ١٤٠/١ – حسن التوسل ١٩٤

وقول أبى فراس :

غِنى النفسِ لمنْ يعقل　　　خيرٌ مِنْ غِنى المالِ

وفضلُ الناسِ فى الأنفسِ　　　ليس الفضلُ فى الحالِ

وقول ابن معصوم :

قد طلع البدرُ فى كواكبِهِ　　　كالمَلْك يختال فى مواكبِهِ

٧ - جناس القلب :

ويسمى جناس العكس أيضًا .

وهو ما تساوت حروف ركنية عددًا ، واختلفت ترتيبًا .

كقوله تعالى حكاية عن هارون :

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنى إِسْرَائِيلَ ﴾ طه ٩٤ .

وقوله ﷺ :

" اللّهم استُر عَوراتنا وآمنْ رَوْعاتِنا " ، (يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: اقرأ وارقأْ) . وقول بعض البلغاء : " من يُحرم يُرحم ، ومن يُجْرم يُرجم " .

وقول عبد الله بن رواحة فى مدح الرسول :

تحملُه الناقةُ الأدْماءُ معْتجِرًا　　　بالُبرْدِ كالبدْرِ جَلّى نُورهُ الظُلَما

وقول العباس بن الأحنف :

حُسَامك فيه للأحباب فَتْحٌ　　　ورُمْحُكَ منه للأعداءِ حتْفُ

وقول أبى تمام :

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصَّحائفِ فى　　　مُتونهنّ جَلاءُ الشَك والرِيَبِ

وقول الآخر :

قلت لـمـــا لاحَ لى منْـــ ـــها شُـعاعٌ وبَـريـقُ

أشـــقيقٌ أم عقيـــقٌ أم حـــريقٌ أم رحيـــق

وقول الشاعر :

لاح أنـــوارُ النـــدَى مـــنِ كفِّهِ فى كلِّ حَـال

وقول البحترى :

شـواجـرُ أرمـاحٍ تُقَطّـعَ بينَهم شَـواجَر أرْحام مَلُومٍ قطوعُهـا

وليس بالضرورة فى الجناس المقلوب أن تقلب جميع حروفه ، بل اكتفى علماء البديع بقلب حرف واحد أو حرفين من أحد الركنين .

وسواء كان القلب فى جميع الحروف مثل : لاح وحال ، وفتح وحتف واقرأ وارقأ . أو كان فى بعض الحروف مثل : حريق ورحيق ، وأرماح وأرحام وصفائح وصحائف سمى مقلوبًا . وأن بعض علماء البديع يخصون القلب فى جميع الحروف باسم العكس(١) . وإذا ولى أحد المتجانسين الآخر سمى مكررًا :

كقوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ النمل ٢٢ .

وما جاء فى الخبر : " المؤمنون هينون لينون " .

وقول البستى :

أبـا العبـاس لا تحسَـبْ لشينى بأنى من حُلَى الأشعارِ عـارِى

فلى طبـعٌ كَسَلْسـال مَعـين زُلال من ذرى الأحجار جارى

إذا مـا أكبَـت الأدوارُ زنـدًا فلى زَنـدٌ على الأدْوار وارِ

---

(١) الأنوار ١/٢٠٥

وثمة نوع من القلب إذا قرأته من اليمين إلى اليسار لم يتغير معناه إذا قرأته من اليسار إلى اليمين ، كقوله تعالى : ﴿...كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الأنبياء ٣٣. وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ المدثر ٣ . وقولهم : ساكب كاس .

ويلحق بالجناس شيئان :

أحدهما : أن يكون اللفظان لهما أصل واحد فى اللغة ، وهذا يسمى تجنيس الاشقاق، كقوله تعالى:﴿... يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ...﴾ يوسف ٨٤ ، وقوله تعالى:

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ النمل ٤٤ .

وقوله : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الرحمن ٥٤ .

وقوله : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ الروم ٤٣ .

وقوله ﷺ : " ذو الوجهين لا يكون وجيهًا عند الله " .

وقوله : الظلم ظلماتٌ يوم القيامة . وقوله : عُصيَّة عصتْ الله ورسولَه .

وكقول أبى تمام :

عمَمْتَ الخلْقَ بالنْعماء حتّى   غدا الثَقلان منها مُثقلَين

وكقول الشاعر :

إن تَرَ الدنيا أغارتْ   ونجومَ السّعْد غارتْ

فصروفُ الدهرِ شتّى   كلّما جَارَت أجَارتْ

والثانى : ما يشبه الاشتقاق وليس منه ، ويسمى تجنيس المشابهة .

كقوله تعالى : ﴿ ...لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ ...﴾ المائدة ٣١ فالأول من الرؤية والثانى من المواراة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ يوسف ١٠٧ .

فالأول من الإرادة والثانى من الرد .

وقول البحترى :

وإذا مـا ريـاح جـودك هبـت   صـار قـولُ العُـذّال فيهـا هَبَـاءُ

ومن العلماء[1] من جعل للتجنيس أصلين فقط وهما :

جناس المزاوجة وجناس المناسبة ، ومنها لفظى ومنها معنوى .

والجناس اللفظى منـه جنـاس المزاوجـةاللفظى ، وجنـاس المناسـبة اللفظـى .

فجناس المزاوجة اللفظى كقوله تعالى :

﴿ ... وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ... ﴾ الشورى ٤٠ .

فالسيئة الثانية ليست سيئة وإنما هى بمعنى العقوبـة ، وسميـت باسمهـا لقصـد المزاوجة . ومثله قوله تعالى :

﴿ ... فمن اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَـاعْتَدُوا عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَيْكُـمْ ... ﴾ البقرة ١٩٤ سمى جزاء الاعتداء اعتداء ؛ ليكون فى نظم الكلام مزاوجة .

وجناس المناسبة اللفظى يدخل فيه كل ما ذكرناه من أنواع الجناس السابقة، أما الجناس المعنوى فمثل قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ مع قوله تعالى : ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَـا أَعْبُـدُ ﴾ الكافرون ١ ، ٣ فإن التقدير : يا أيها المكذبون أنتم المكذبون .

وكقول الشاعر :

أرانـى الله جسْـمَك فى خَفـاءٍ   وعينَـك مثـلَ بشّـارِ بـنِ بُـردِ

أى عمياء ؛ لأن بشارًا كان أعمى ، فهو جناس بين عينك وعمياء .

---

(١) بديع القرآن ٢٧ - التحرير ١٠٢ - النكت ٣٩

وبيت المعرى :

نهـارهـم ابن يغْفَـر فى ضحـاه   وليـلـة جـارهـم بنـت المحلـقْ

وبنت المحلق اسمها ليلى ، أى ليلة جارهم مظلمة ، يقال :ليلـة ليـلاء ليلـى ، أى : طويلة شديدة الظلام .

فهو جناس معنوى بين " ليلة وليلى " . وابن يعفر هو الأسْود .

ومما ينبغى التنبيه إليه أن أنـواع الجنـاس لا تستحسـن حتـى يسـاعد اللفـظ المعنى ، ولا تستلذ . حتى تكون عذبة الإصـدار والإيـراد ، سـهلة سلسـة المقـاد ، يراعى فيها النظائر وتمكن القرائن ، وإلا فمـا قلـق فـى أماكنـه ، ونبـا عـن مواقعـه فبمعزل عن الرضا عند علماء البديع .

فإن أردت أن تستوفى الحسن فيـه فأرسـل المعـانى علـى سـجيتها ، ودعهـا تطلب لأنفسها الألفاظ ، فإذا تُركت وما تريد ، لم تكتس إلا ما يليق بها .

فأما إذا تعمدّت التجنيس بلفظين مخصوصين ، فهذا هو المسـتكره المعيـب ، وقد يفضى بك طلب الإحسان من حيث لم تحسنه إلى أشنع القبح ، وينقلب إحسانك إساءة .

انظر إلى قول ابن الفارض وقد أتـى بجنـاس لا يخفـى علـى صـاحب الـذوق السليم ما فيه من الاستثقال والكراهة :

وما اخترتُ حتى اخترتُ حبّك مذهبًا   فوا حـيرتى إن لم يكـنْ فيـك خِـيرتى
وجـدّ بسـيف العزم سـوف فإن تَجُـدْ   تجـد نفْسًا فالنفـسُ إن جـدْتَ جـدّت

فى البيت الأول، (اخترت) من الخَيَرة ، و(اخترت) الثانية من الِاختيار .

وفى البيت الثانى ، (تجد) الأولى من الجود ، والثانية من الوجدان .

وإليـك بعـض الأمثلة التـى تـدل علـى التكلـف الممجـوج ، والِاسـتهجان الممقوت وهى فى غنى عن كل تعليق . كقول الأعشى :

وقد غـدوْتُ إلى الحـانوتِ يتْبعنـى   شـاوٍ مشـلٌ شَـلولٌ شَلْشَـلٌ شَـولُ

وقول مسلم بن الوليد :

سُلّتْ وسَلَتْ ثم سُلَّ سَلِيلُها　　　فأتى سَليلُ سَلِيلها مَسْلُولاَ

وقول أبى الطيب :

فقلقلْت بالهَمِ الذى قَلْقَلَ الحَشَا　　　قَلاقِلَ عِيسٍ كلُّهنّ قلاَقِلُ

حُكِى عن ابن جنى أن الأصمعى(١) كان يدفع قول العامة إذا قالوا : هذا بجناس ، ويقول : ليس بعربى خالص . وقال ابن رشيق : هو من أنواع الفراغ وقلة الفائدة ومما لا يشك فى تكلفه .

رد الأعجاز على الصدور :

أول ما ينبغى لك أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظًا تقتضى جوابًا ، فالمرضَى أن تأتى بتلك الألفاظ فى الجواب ، ولا تنتقل عنها إلى غيرها مما هو فى معناها ، كقول الله عز وجل ﴿ ... وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ... ﴾ الشورى ٤٠ .

وهذا يدلك على أن لرد الأعجاز على الصدور موقعًا جليلا من البلاغة وله فى المنظوم خاصة محّلا خطيرًا(٢) .

ويأتى هذا النوع فى النثر كما يأتى فى الشعر :

أما فى النثر : أن يجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بالمتجانسين فى أول الفقرة والآخر فى آخرها .

والمراد بالمكررين : المتفقين فى اللفظ والمعنى .

والمتجانسين : المتشابهين فى اللفظ دون المعنى .

والملحقين : اللذين يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق .

---

(١) خزانة الأدب/٢٠ ، ٢١

(٢) خزانة الأدب/٢٠ ، ٢١

فهذه أربعة أقسام ، والأمثلة على الترتيب كما يلى :

الأول قوله تعالى:﴿... وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ...﴾ الأحزاب٣٧.

الثانى : سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل .

الثالث : ﴿ فقلت اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ نوح ١٠ .

الرابع : ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنْ الْقَالِينَ ﴾ الشعراء ١٦٨ .

وهذه بعض الآيات القرآنية التى يمكنك أن تردها إلى أقسامها :

قال تعالى :﴿...وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا...﴾ النساء ١٦٦.

قال تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾آل عمران٨.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُون ﴾ الانعام ١٠ .

قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ الأسراء ٢١ .

وفى النظم على أربعة أقسام وهى :

أن يقع أحد اللفظين فى آخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول ، أو حشوه ، أو عجزه ، أو صدر المصراع الثانى . فهذه أربعه أقسام ، وعلى كل تقدير فاللفظان إما مكرران ، أو متجانسان ، أو ملحقان يجمعهما الاشتقاق ، أو ما يشابه الاشتقاق ، فهذه أربعة أقسام وبذلك تصير الأقسام ستة عشر :

ونبدأ باللفظين المكررين :

قال ابن جابر الأندلسى :

جمالُ هذا الغزالِ سحَر   يا حبَّذا ذاكَ الجمالُ
كمالُه لا يخافُ نقْصا   دَام له الحسْنُ والكمالُ

وقال عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطِع شيئًا فدعْه   وجاوْزه إلى ما تسْتطيع

وقال أبو فراس :

هـو المـوْت فاخْتر ما حَلا لَك ِذكره   فلم يمتْ الإنسان ما َحيَى الِذكْر

وقال البحترى :

على الحى سـرنا عنهم وأقاموا سـلام   وهـل يـدنـى البعيـد سـلام

ومن أمثلة اللفظين المتجانسين :

قول السرىّ الرفاء :

يَسـارُ مـن سـجَيتهـا المنـايـا   ويُمنـى مـن عَطيّتهـا اليسـارُ

وقول الثعالبى :

وإذا البـلابـلُ أفصـحَتْ بلُغَـاتِهـا   فانْـفِ البـلابلَ باِحتِسـاءِ بَلابـلِ

فالأول جمع بلبل ، والثانى جمع بلبلة وهى الهمّ ، والثالث جمع بُلبلة الأبريق.

وقول ابن جابر الأندلسى :

زرتُ الديـارَ عن الأحبّـةِ سـائلاً   ورجَعـتُ ذا أسفٍ ودمْعٍ سـائِـلِ

وقول أبى الفضل الميكالى :

إن لى فـى الهـوى لسـانًا كَتومًا   وفـؤادًا يُخفِـى حَريـقَ جَـواهُ

غيْـرَ أنـىّ أخـافُ دمْعـي عليـه   سـتَراهُ يُبـدى الـذى سـتَراهُ

ومن أمثلة اللفظين اللذين جمعهما الاشتقاق :

قول البحترى :

يرينى الشـىءُ تأتِـى بـهِ   وأكْـبرُ قـدْرك انْ اسـتريبـا

وقول أبى فراس :

وما إنْ شبتُ من كِبرٍ ولكنْ لقيتُ من الأحبّة ما أشابا

وقول البحترى :

وإنى لأباءُ على كلّ لائم عليك وعصّاءٍ لكل مَلام

وقول أبى فراس :

ولكننى فى ذا الزمانِ وأهلِه غريبٌ ، وأفْعالى لديه غَرائبُ

ومن أمثلة اللفظين اللذين يجمعهما ما يشبه الاشتقاق :

قول الحريرى :

ولاحَ يلحى على جرى العنان إلى ملهى فسحقا له من لائح لاحِ

فالأول من يلوح ، والأخير اسم فاعل من لحاه .

وكقول الشاعر :

لعمرى لقد كان الثُريا مكانه تراه فأضحى الآن مثواه فى الَثرى

فالثريا واوى من الثروة ، والثرى يائى .

وقول الحريرى :

ومِضطَلِعٌ بتَلْخيصِ المعانىِ ومُطَّلِعٌ إلى تَخْليص عَانِى

فالأول من عنى يعنى ، والثانى من عنا يعنو .

وقول التهامى :

طيْف ألمَّ فزادَ فى آلامِى ألَمَّا ولْم أعْهدْه ذَا إلْمَام

فالألف فى ألم أصلية ، وفى الإلمام زائدة :

وأفضل هذه الأنواع إذا كان اللفظان متجانسين ، أحدهما فى آخر البيت والآخر فى صدر المصراع الأول .

السجع :

هذا اللون من ألوان البديع كثير الدوران عظيم الاستعمال فى ألسنة البلغاء، وقد عوّل علية علماء البلاغة ، فقد وجدوا كتاب الله وسنة نبيه وكلام على رضى الله عنه مملوءًا به ، ولو كان مستكرهًا لما ورد فى الكلام البالغ الفصاحة . ولأجل كثرته فى ألسنة الفصحاء لا يكاد بليغ يرتجل خطبة أو يحرر موعظة إلا كان أكثر كلامه مبنيًا على السجع ، والرسول - علية السلام - لم ينكر السجع على إطلاقه ، وإنما أنكر منه سجع الكهّان فحسب ؛ لأنهم يريدون به إبطال حق فتتشدق ألسنتهم به للتأثير به على السامع وما يؤدى إليه من فورة انفعالية(١) .

والسجع هو اتفاق الفواصل فى الحرف أو فى الوزن ، أو فيهما معًا . فإن اتفقا فى الحرف دون الوزن فهو المطرف كقوله تعالى :

﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ نوح ١٣، ١٤ " فوقارا وأطوارا " اتفقتا فى الحرف الأخير دون الوزن .

وقول بعضهم : جنابه محطُّ الرحال ، ومُخَيّمُ الآمال .

وإن اتفقتا فى الوزن دون الحرف سمى المتوازن ، كقولة تعالى :

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ الغاشية ١٥ ، ١٦ " فمصفوفة ومبثوثة " اتفقتا فى الوزن دون الحرف الأخير وهو ما قبل التاء .

وإن اتفقتا فى الوزن والحرف معًا سمى المتوازى كقوله تعالى :

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ الغاشية ١٣ . وقول الرسول ﷺ : " اللهم أعط منفقًا خلفًا ، وأعط ممسكًا تلفًا " .

---

(١) الطراز ١٨/٣

فإن راعى الوزن فى جميع الألفاظ أو أكثرها وقابل الكلمة بما يعادلها فى الوزن سمى المرصع ، من قولهم : تاج مرصع إذا كان فية حلية ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الصافات ١١٧ ، ١١٨ .

هذا الإستواء فى أوزان الفواصل يجعل للكلام رونقًا وطلاوة ، لما فى ذلك من الاعتدال المطلوب طبعًا .

والسجع لا يحسن كل الحسن إلا إذا توافرت فية أربعة شروط :

أن تكون الألفاظ حلوة المذاق يلذ سماعها على الآذان .

أن تكون الألفاظ تابعة لمعناها ، ولا يكون المعنى تابعًا لها حتى تسلم من التكلف .

أن تكون إحدى السجعتين غير متنافرة مع أختها .

أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير لمعنى الأخرى ، وإلا كانت تكرارًا لا فائدة فيه ، كقول الصابى :

" يسافر رأيه وهو لا يبرح ، ويسير وهو ثاو لا ينزح " يسافر ويسير بمعنى واحد ، ويبرح وينزح بمعنى واحد .

والسجع قد يكون قصيرًا وقد يكون طويلاً . والقصير هو أصعب أنواع السجع مسلكًا وأطيبها على السمع ، وأخفها على القلب ؛ لأن الألفاظ إذا كانت قليلة فهى أحسن وأرق ؛ لقرب فواصلها والتحام أطرافها . ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أول المدثر .

وقوله تعالى :

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴾ أول المرسلات .

ومن السجع الطويل قوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ هود ٩ ، ١٠ وقوله تعالى :

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ الأنفال ٤٣ ، ٤٤ .

ومن السجع المتوسط قوله تعالى :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى * إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ الأعلى ١ ، ٧ .

وقد تكون أعداد ألفاظ الفقرة الأولى مساوية للثانية ، أو أقل من الثانية ، أو زائدة على الثانية ، فهذه أضرب ثلاثة :

وأحسن السجع ما كانت فيه الفقرتان متساويتين ، كقوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ الضحى ٩ ، ١٠ .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ العاديات ١ - ٥ .

والضرب الثانى : وهو ما كانت فيه الثانية أطول من الأولى بغاية قريبة ، فإن طالت فهو غير محمود .

ويرجع قبح طول الثانية على الأولى إذا كان فاحشًا - إلى شيء نحسه بآذاننا وندركه بأذواقنا ، فإن السامع ألف الانتهاء إلى غاية فى السجعة الأولى ، فإذا زيد

عليها اختلت مقاييسه عنده ، وثقلت عليه هذه الزيادة التى لم يتوقعها فى السجعة الثانية ، فيفتر حماسه لها ، وتقل نشوته بها ؛ لأنه اكتفى من الثانية بمقدار الأولى ، وظن أنه ظفر بمقصوده من فهم المراد ، وفى الحقيقة لم يظفر به بعد . أما الطول غير الفاحش فلا بأس به ، وقد ورد فى القرآن ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجبال هدًا ﴾ فاطر ٨٨ - ٩٠ فواضح أن الثانية أطول من الأولى .

الضرب الثالث : وهو ما كانت الفقرة الثانية أقصر من الأولى ، عكس الضرب الثانى ، وهذا معيب عند أهل البديع .

والسر فى ذلك أن الفقرة الأولى إذا طالت ثم جاءت الثانية أقصر منها كانت كالشيء المنقطع المبتور ، وكان السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، ويتبدد ما كان يتوقعه من المماثلة بينهما .

وهذا الضرب أبعدها ، والضرب الأول أعدلها ، والثانى أوسطها فى العدل ، ولذلك لا يكاد الضرب الثالث فى القرآن الكريم(١) كما زعموا .

وهذا غير صحيح فقد ورد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

و﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ الفيل ١ ، ٢ .

وينبغى أن نقول عن كلمات القرآن المتوافقة أنها فواصل ، تأدبًا ، وقد سماها الله تعالى بذلك حيث قال : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ فصلت ٣ .

فليس لنا أن نتجاوز ذلك ، كما لا يجوز لنا استعمال الفاصلة فى الشعر ، لأنها صفة لكتاب الله تعالى ، فلا نتعداه .

ولا يقال فيها أسجاع حيث لا يجوز وصفها بصفة لم يرد الإذن بها ، ولا يجوز بالإجماع تسميتها قوافى ، لأن الله سلب عن القرآن الكريم صفة الشعر والقافية فالشعر جزء منه .

---

(١) الطراز ٣ / ٢٧

ومن العلماء من خص السجع بالنثر ، والصحيح عدم اختصاصه به ، بل يجرى فى النظم أيضًا . ومن السجع على هذا القول ما يسمى بالتشطير :

وهو أن يقسم البيت شطرين ، ثم يصرِّع كل شطر من الشطرين ، لكنه يأتى بكل شطر مخالفًا لقافية الآخر حتى يتميز من أخيه(١) كقول مسلم بن الوليد:

مُوفٍ على مُهَجٍ ، فى يومِ ذى رهَجٍ　　كأنه أجَلٌ ، يسعى إلى أمَلِ

وكقول أبى تمام :

تدْبيرُ معتصمٍ ، بالله منتقمٍ　　لله مُرْتغبٍ ، فى الله مُرْتَقِبِ

وقول البوصيرى :

كالزهر فى ترف ، والبدر فى شرف　　والبحر فى كرم ، والدهر فى همم

وقول ابن جابر الأندلسى :

كالغيثِ فى كرم ، واللّيثِ فى حَرم　　والبدرِ فى أُفُق ، والزهرِ فى خلَقِ

ومنه ما يسمى بالتصريع :

وهو استواء آخر جزء فى الصدر وآخر جزء فى العجز فى الوزن والإعراب والتقفية ، ولا يعتبر بعد ذلك أمر آخر ، وهو فى الأشعار كثير ، لاسيما فى أول القصائد ، وكثير ما يأتى فى أثناء قصائد القدماء كقول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى　　بصبح وما الإصباح منك بأمثَلِ

فإن أول القصيدة :

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرَى حَبيبٍ ومنزلِ　　بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخُولِ وحَوْمَلِ

وكقول أوس بن حجر :

إنى أرقْتُ ولم تأرقْ مَعى صاحِى　　لمستكفٍ بُعَيد النوم نوّاحِ

---

(١) تحرير التحبير/ ٣٠٨

من قصيدة أولها :

ودّع لميسَ وداعَ الصارمِ اللاّحي قد فنّكتْ فى فسادٍ بعْدَ إصلاحِ

* * *

وهكذا نرى أن السجع سواء كان نثرًا أو شعرًا له نظام متبع عند علماء البديع لا يصح العدول أو الانحراف عنه ، فهو لا يأتى اعتباطًا بلا تبصر ، وحيثما أردت السجع جئت به دون تفكير ؛ بل به سنن مرسوم ، وطريق محدود يقول الباقلاني(١) : " إن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه ، كان قبيحًا من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة ، كما أن الشاعر - إذا خرج عن الوزن المعهود- كان مخطئًا، وكان شعره مرذولا ،وربما أخرجه عن كونه شعرًا".

ثم يقول : " ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء ، فكان بعض مصاريعه من كلمتين وبعضها يبلغ كلمات ، ولا يرون فى ذلك فصاحة ، بل يرونه عجزًا .

لزوم ما لا يلزم :

ومن السجع نوع يسمى الأعنات أو لزوم ما لا يلزم وهو : أن يلتزم الناثر فى نثره أو الشاعر فى شعره قبل روى البيت من الشعر أو الفاصلة من النثر حرفًا فصاعدًا على قدر قوته وحسب طاقته .

فالأديب يلتزم ما لا يلزم ؛ لأنه ليس من الأحرف التى تجب المحافظة عليها فى الشعر أو النثر ، كما أن السجع يتم بدونه .

ويحمد من هذا النوع ما ليس فيه كلفة ؛ لأن التكلُّف يذهب برونق الصنعة ، ويضعف هشاشة النفس له ، وحينئذ يكون تركه أجود من ذكره .

---

(١) إعجاز القرآن ٥٩ ، ٦٤

وقد جاء من ذلك فى القرآن الكريم مواضع رائعة الحسن ، كقوله تعالى :

﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ الطور ١ ، ٢ .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِى الْكُنَّسِ ﴾ التكوير ١٥ ، ١٦ .

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ الانشقاق ١٧ ، ١٨ .

﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ القلم ٢ ، ٣ .

﴿ ... فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الغَىِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ الأعراف ٢٠١ ، ٢٠٢ .

وقول ﷺ :

" اللّهم بك أحاولْ ، وبك أصاولْ " .

" شَرُّ ما فى المرءِ شُحٌّ هالعْ ، أو جُبْن خالعْ " .

" الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلَفْ ، وما تناكر منها اختَلفْ " .

وقول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه :

لا يكن حبّك كلَفا ، ولا بغضك تلَفا " .

وقل استعمال هذا النوع فى أشعار المتقدمين ، أما المتأخرون فقد أكثروا منه وتعمدوه ، حتى عمل منه أبو العلاء المعرى ديوانًا كبيرًا سمّاه اللزوميات ، وكان ابن الرومى من أولع الناس به .

فمن ذلك قول المعرى :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقَّ لسكان البسيطة أن يبْكوُا

يحطّمنا صَرف الزمانِ كأنّنا زجاجٌ ، ولكن لا يُعادله سبْكُ

وكقول الشاعر :

سلّم على قَطَن إن كنت نازلَه   سلاَم من كان يهوَى مرةً قطَنَا
أحِبّه والذى أرسى قواعدَه   حُبًّا إذا ظهرت آياتُه بطَنَا
ما من غريبٍ وإن أبدى تجّلده   إلاّ تذكّر عند الُغرْبة الوَطَنَا

وقول الشاعر :

يقولون فى البستان للعين لذةً   وفى الخمر والماء الذى غيرُ آسنِ
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلهّا   ففى وجه من تهوى جميع المحاسِن

وقول بعض الفصحاء :

" وجههٌ وسيمُ وفضلُه جسيمٌ " .

قال الشيخ عبد القاهر فى أسرار البلاغة(١) :

وأصل الحسن فى جميع المحسنات اللفظية أن تكون الألفاظ تابعة للمعانى ، فإن المعانى إذا أرسلت على سجيتها، وتركت وما تريد ، طلبت لأنفسها الألفاظ، و لم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك ، كان كما قال أبو الطيب :

إذا لم تشاهدْ غيرَ حُسْنِ شِيَاتِها   وأعْضائِها فالحُسْن عنْكَ مُغيَّب

وفيه نظر (هكذا يقول صاحب الإشارات والتنبيهات فى نهاية الكلام عن البديع) لأن وجه الحسن غير وجه تحسينه للمعانى ، ومطلوبه هو الأول ، وما ذكره هو وجه التحسين ، فإن الشيء إذا كان حسنًا ، يجب أن يكون جميع ما يتعلق به أيضًا حسنًا ، وإلا لكان كالحسن الشائع ، والحق أن يقول :

وجه حسن ما تقدم من المحسنات اللفظية هو وجه حسن الشعر ، وهو التناسب. فإن الجنس ميّال إلى الجنس ، والطبع ميّال إلى إيقاع المناسبة بين الأشياء ، ونفوره عن المتنافرات . فإن التناسب من الاعتدال ، والنفس الكاملة مفطورة على محبته .

---

(١) أسرار البلاغة/١٣ ، وانظر الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة/٣٠٤

السَّرِقات الشِّعْرِيَّة

السَّـرقات الشِّعْريَّـة

يقول القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٦٦هـ)(١) :

والسرقة داء قديم ، وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرًا ، وقد يكون غامضًا ليس فيه غير اختلاف الألفاظ .

ولكن المحدثين قد عملوا على إخفاء السرقة بالنقل والقلب ، وتغيير المنهاج والترتيب ، أو جبر ما فيه من نقص بالزيادة والتأكيد والتعريض فى حال ، والتصريح فى أخرى . فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور ما يجعله مخترعًا لهذا المعنى ومبتدعًا .

والكشف عن السرقات والمقارنة بين معانى الأبيات الشعرية ونظمها حتى يمكن الحكم على الشاعر بأنه مبتدع أو متبع ليس فى متناول الجميع ، وليس من شأن من لا يعرف من السرقة إلا اسمها ، ووقف عند قشورها فيصعب عليه أن يلم بالواضح منها فضلاً عن الغامض ، وبالسطح قبل الوصول إلى الأغوار .

فباب السرقة(٢) لا ينهض به إلا الناقد البصير والعالم المبرز ، وليس كل من تعرض له أدركه ، ولا كل من أدركه استوفاه واستكمله . ولست تعد جهابذة الكلام ونقاد الشعر حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علمًا برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق والغصيب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذى ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذى حازه المبتدئ فملكه ، فصار المعتدى مختلسًا سارقًا ، والمشارك له محتذيًا تابعًا ، وتعرف اللفظ الذى يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التى يصح أن يقال فيها : هى لفلان دون فلان .

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه/٢١٤ ط عيسى الحلبى .

(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه/١٨٣

فهناك أمور متقررة في النفوس متصورة للعقول ، يشترك فيها الفصيح والأعجم والشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر ، والبليد بالحمار ، والشجاع الماضى بالسيف والنار - فما كان شأنه كذلك ، وكانت السرقة عنه منتفية ، والاتباع فيه ممتنع .

إلا أن مثل هذه الأمور المتناقلة المتداولة قد يصح فيها الاختراع والابتداع ويتبارى فيها الشعراء والكتّاب فلا يعد من السرقة ولا يحسب من الأخذ ، وإنما يكون الأصل فيه لمن انفرد به ، وأوله للذى سبق إليه : كوصف البرق بخطف الأبصار ، وسرعة اللمح وأنه كالقبس من النار ، وكالحريق المتضرم ، وكمصباح الراهب ، وكتشبيه الفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها أو فى حسنها وصفائها .

فإذا تدبرت هذه الأمثلة وما شاكلها ، وجدت نفسك أمام صنفين من الكلام :

صنف مشترك عام الشركة لا ينفرد به أحد ، كحسن الشمس والقمر ، ومضاء السيف ، وبلادة الحمار ، وجود الغيث ، ونحو ذلك مما هو مركب فى النفس تركيب الخِلقة .

وصنف سبق المتقدم إليه ففاز ، ثم تداوله الناس بعد ذلك فكثر واستعمل على ألسنة الشعراء فحمى نفسه من السرق ، وأزال عن صاحبه مذمة الاخذ ، كما يشاهد فى تمثيل الفتاة بالغزال فى جيدها وعينيها ، والمهاة فى حسنها وصفائها، أو البرق بالمصباح.

وقد يكون فى هذا الباب ما تتسع له أمة وتضيق عنه أخرى ، ويسبق إليه قوم دون قوم ، لعادة أو مشاهدة أو مراس ، كتشبيه العرب الفتاة ببيضة النعامة ، ولعل فى الأمم من لم يرها ، وحمرة الخدود بالورد والتفاح ، وكثير من العرب من لم يعرفهما .

هذه المعانى المتداولة التى يشترك فيها الناس قد يفضل أحدهم الآخر بانفراده بلفظة عذبة أو ترتيب حسن ، أو زيادة يهتدى إليها دون غيره فيصبح فى يديه المعنى المشترك المبتذل شيئًا آخر يتصف بالابتداع والاختراع .

فتشبيه الخدود بالورد مثلاً أو تشبيه الورد بالخدود قد أكثر منه الشعراء ، وجرى على ألسنة العامة والخاصة ، ولا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تضم إليه ، أو معنى يشفع به ، كقول أبى سعيد المخزومى :

والورد فيه كأنما أوراقُه ... نُزعتْ ورُدَّ مكانهنَّ خدودُ

فهو لم يزد على مجرد تشبيه الورد بالخدود (وهو المعنى الجارى على ألسنة الناس) ولكن عندما كساه هذا اللفظ الرشيق ، أحسست فى نفسك عنده هِزة ، تعلم بها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها .

فالشاعر حين شبه الورد بالخدود لم يكن فى ذلك قبح فى شاعريته ، ولا اتهامًا له بالسرقة ، وإنما هو أحق بالتفضيل وأولى بالمدح ، حين أخرج هذا المعنى المبتذل فى صورة حسنة ونظم أخاذ بما أضاف إليه من لفظ رشيق .

فالمعانى المشتركة - إذن - لا تدخل فى باب السرقات إلا إذا أضاف الشاعر إليها شيئًا جديدًا فينسب الفضل إليه عندئذ لما له من فضيلة السبق بكسوة المعنى ثوبًا قشيبًا وورنقًا عذبًا .

والمعانى المشتركة التى لا تدخل فى باب السرقات كثيرة فى الشعر العربى .

كقول جرير :

كأن رؤوس القومِ فوقَ رِماحِنا ... غداة الوغَى تِيجانُ كسْرى وقيْصرا

وقريب منه قول أبى تمام :

أبدلت أرؤسهم يوم الكريهة من ... قَنا الظهورِ قَنا الخطِّىّ مدعَّما

فهذا ليس من باب السرقات ، فليس فيه أكثر من رفع الرؤوس على القنا ، وهذا معنى مشترك لا يسرق .

ومن ذلك التوسل بالشباب وجعله شفيعًا لدى الغانيات ، فهو معنى مبتذل لا يدخل فى باب السرقات . كقول الوراق .

كفاك بالشيب ذنبًا عند غانية ... وبالشباب شفيعًا أيها الرجل

ومثله قول النمرى :

وإذا توسل بالشباب أخو الهوى ... ألفاه نعْم وسيلةُ الموسّل

ومن المعانى المشتركة التى لا تؤخذ على الشعراء ولا تعد من المثالب .

قول على بن جبلة :

يأسو الذى يجرح أعداؤه ... وما لما يجرحه آس

وقول أشجع :

فما يرفع الناس من حَطّهُ ... ولا يضع الناس من يرفع

وقول أبى تمام :

فإن أفسدت شيئًا فليس بصالح ... وإن أصلحت شيئًا فليس بفاسد

وقول الطيب :

فلا ترتُقِ الأيام ما أنت فاتِقٌ ... ولا تفتِقُ الأيامُ ما أنتَ راتقُ

فالمعنى مشترك بين هذه الأبيات الأربعة ، وكلها تدل على سطوة الممدوح وقوة شكيمته . فكلمته نافذة ، وحكمه قاطع ، وليس فى مقدور الأيام ولا فى مقدور الناس أن يغيروا مما يراه شيئًا سواء فى إحسانه أو فى إساءته ، ومع هذا الإشتراك فى المعنى لا يعد أحدهم آخذًا من الآخر ، ولا يدخل فى باب السرقات ، وإن كان الفضل للمتقدم والسبق له .

ومما يجرى هذا المجرى .

ما قاله ذو الأصبع العدوانى :

أطافَ بنا ريْبُ الزمانِ فَداسَنا ... له طائف بالصالحين بَصيرُ

والبحترى :

ألم تر للنوائبِ كيفَ تسمُو ... إلى أهلِ النوافِلِ والفُضُولِ

والمتنبى :

أفاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزّمنِ ... يَخْلُو من الهمِّ أخْلاهُم من الفِطَنِ

وهو ما يروى عن النبى ﷺ : " أعظم الناس بلاء الأمثل فالأمثل " .

ومن المعانى المشتركة بين المتقدمين والمتأخرين حتى بلغت حد الابتذال :

فراق الرجل وطنه وأصدقاءه إذا لم يجد حسن المثوبة ، أو شعر بالضيم .

يوقل البحترى :

وإذا ما تنكّرتْ لى بلادٌ ... أو صديق فإنّنى بالخِيارِ

وقال ابن معَّدل فأحسن وأوجز ، لكنه اقتصر على البلد :

إذا وطَنٌ رابنى ... فكلٌّ بلادٍ وَطَنْ

وقال أبو الطيب :

إذا صديقٌ نكرت جانبه ... لم تعينى فى فراقة الحِيَلُ

فالمعنى واحد مشترك بين الشعراء ، وللبحترى الفضل لسبقه وما فى بيته من طرافة .

وقد يأخذ الشاعر المعنى ويزيد عليه فيكون هو المتقدم على غيره .

قال الأفوه الأودىّ :

وترى الطيرَ على آثارِنا ... رأىَ عينٍ ثِقَةً أنْ سَتُمَارْ

وقال أبو نواس :

تتأبى الطير غُدْوَته ... ثقةً بالشِّبْع مِن جَزَرهْ

وقال أبو تمام :

وقد ظُلّلتْ عِقْبَانُ أعلامه ضُحىً ... بعقْبَانِ طيرٍ فى الدماء نواهِلِ

أقامتْ مع الرايات حتى كأنها ... من الجيش إلا أنها لم تُقاتِلِ

زعم كثير من النقاد أن أبا تمام زاد عليهم بقوله : " إلا أنها لم تقاتل " فهو المتقدم .

يقول القاضى الجرجانى(١) : وأحسن من هذه الزيادة عندى قوله : " فى الدماء نواهل ".وإقامتها مقام الرايات وبذلك يتم حسن قوله :" إلا أنها لم تقاتل".

على أن الأفوه الأودى قد فضل الجماعة بأمور :

منها السبق وهى الفضيلة العظمى .

والآخر قوله " رأى عين " . فخبر عن قربها لأنها إذا بعدت تخيلت و لم تر وإنما يكون قربها متوقعًا للفريسة ، وهذا يؤيد المعنى .

ثم قال : " ثقة أن ستمار " . فجعلها واثقة من المسيرة ، و لم يجمع هذه الأوصاف غيره .

فأما أبو نواس فإنه نقل اللفظ و لم يزد فيفضل .

وقد يرى اللاحق من الشعراء معنى لشاعر سابق فيه نقص أو ضعف فيأخذ المعنى بعد أن يجبر ما فيه من نقص ، ويدفع ما به من ضعف .

قال أبو تمام :

غربتْه العلا على كثرةِ الأهـ ... ـلِ فأضحى فى الأقربين جنيبا

فليطُلْ عمرُهُ ، فلو مات فى مرْ ... ومقيمًا بها لماتَ غريبًا

فقد أساء أبو تمام بذكر الموت فى المديح ، فلا حاجة به إليه ، والمعنى لا يختل بفقده . ومن مات فى بلده غريبًا فهو فى حياته أيضًا غريب ، فأى فائدة فى استقبال الممدوح بما يتطير منه .

تناول أبو الطيب هذا المعنى وحذف ما به من تطير ونقاه من شوائبه .

---

(١) الوساطة ٢٧٤

فقال :

وهكذا كنتُ فى أهْلى وفى وَطَنى		إن النفيسَ غريبٌ حيثما كانا

فأحسن ولم يسىء .

وقد يعجب الشاعر الفحل ببيت من الشعر سمعه من قائله أو وصل إليه عن غيره فيغتصب البيت ويعزوه لنفسه كما فعل الفرزدق إذ سمع جميلاً ينشد :

ترى الناس ما سِرْنا يسَيرون خلْفنا		وإن نحنُ أوْمَأْنا إلى النّاس وقّفُوا

فقال : أنا أحق بهذا البيت ، فأخذه غصبًا .

وكما زعم دعبل أن أبا تمام قد أخذ قصيدته الرائية التى رثى بها محمد بن حميد الطوسى من أبو مكنف المزنى فى رثاء ذفافة القبس :

قال أبو مَكّنف :

أبعد أبى العباس يُستَعتب الدهرُ		وما بعده للدهر عَتبى ولا عُذُر
ألا أيها الناعى ذفافة والندى		تعست وشلّت من أناملك العشر
إذا ما أبو العباس خَلّى مكانه		فما حملتْ أنثى ولا مسّها طُهْرُ
ولا مَطرتْ أرضًا سماءٌ ولا جرتْ		نجومٌ ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بنى القعقاع بعد وفاته		نجومُ سماء خرّ من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة		وأصبح فى شُغْل عن السفر السَفْرُ
يُعَزُّون عن ثاوٍ تعزَّى به العلا		ويبكى عليه البأس والمجد والشعر
وما كان إلا مال من قل ماله		وذخرًا لمنْ أمْسَى ليْسَ له ذُخْرٌ

فأخذ أبوتمام أكثر هذه القصيدة ، وجعل مكان " بنى القعقاع" بنى بنهان " وأبدل باسم " ذفافة " " محمدًا " .

يشير إلى قول أبى تمام :

كأن بنى بنهان يوم وفاته		نجومُ سَماءٍ خرَّ من بينها البدرُ

تُوفــيت الآمـــالُ بَعْــدَ محمـدٍ   وأصْبحَ فى شغْلٍ عن السفَر السفْرُ
يُعــزون عــن ثاوٍ تُعــزّى به العُلا   ويبكى عليه الجودُ والبأسُ والشِعْرُ

واقبح السرقات ما يدل على نفسه باتفاق المعنى والوزن والقافية .

قال أبو تمام :

وما ســافرت فــى الآفــاق إلا   ومِــنْ جَدْوَاك راحِلَتى وزادِى

أخذه أبو الطيب فقال :

مُحبّك حيثُما اتجــهتْ رِكابى   وضيفُك حيثُ كنت من البلادِ

والمصراع الأول أيضًا احتذى فيه قول البحترى :

متــى أســيِّر فى الــبلادِ ركائبــى   أجْد سائقى يهوَى إليك وقائدى

وقد يلجأ الشاعر إلى الأخذ فلا يحسن ولا يزيد ، وإنما يقصر عن ســابقه(١) فتلحق به المذمة ، ويلتصق به العيب ، ومن ذلك ما قاله أشجع :

وعـلى عَــدُوكَ يا ابنَ عمّ محمدٍ   رصـدان : ضوءُ الصبح والأظلامُ
فـإذا تـنبَّه رعْــتَه ، وإذا غَـــفَا   ســلّت عــليه سيوفَك الأحلامُ

فيأتى أبو الطيب ويأخذ المعنى ويقصر فيه :

يـرى فى النوم رمحكَ فى كُلاهُ   ويَخْشَــى أن يـراهُ فى السُّــهادِ

فقصر فى ذكر الهاء ؛ لأنه أراد أن يقـابل بـه النـوم ، وبذلـك يتـم المعنـى ، وليس كل يقظة سهادًا ، إنما السهاد امتناع الكرى فى الليل ، ولا يسمى المنصرف فى حاجاته بالنهار ساهدًا وإن كان مستيقظًا .

ومن الأخذ الذى فيه تقصير قول ابن جبلة :

وما ســوّدتْ عِجْــلاً مآثـرُ عزمــهمْ   ولكــن بهم سادتْ على غيرها عِجْل

---

(١) الوساطة/٢٥٣ ، ٣٧٣ : ٣٧٥

وهذا معنى سيئ يقصر بالممدوح ، ويغضُّ من حسبه ، ويحقّر من شأن سلفه ، وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه ، والآباء تزداد شرفًا به ، فيجعل لكل منهم فى الفخر حظًا ، وفى المدح نصيبًا ، لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ، ومنتقل إلى ولده كانتقال ماله ، فإن روعى وحرس ثبت وازداد ، وإن أهمل وضيع هلك وباد ، وكذلك شرف الولد يعم القبيلة ، وللوالد منه القسْم الأوفر . ولو اقتصر على قوله : " بهم سادت على غيرها عجل " لوجد العذر إليه مسلكًا ، ولأمكن أن يقال إنّ عجلاً سادت بهم ، وبأفعالها أيضًا تسود القبيلة ، لكنه وعر هذه الطريقة بقوله :

" وما سودت عجلاً مآثر عزمهم " فجعل الرجل بائنا لاحظّ له فى حسب آبائه وشرفهم .

والجيد فى هذا المعنى ما سبقه زهير بقوله :

وما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباءُ آبائهم قبْلُ

وجرى أبو الطيب على منهاج ابن جبلة فقال :

ما بقومى شرُفْتُ ، بل شرُفوا بى ... وبنفسى فَخَرْتُ لا بجُدُودى

فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه ، وهذا هجاء صريح ، وإن كان هناك من يلتمس له العذر ، لأنه أراد أنه يكتفى بالفخر عليهم بنفسه ، ولا يفتقر إلى مفاخر جدوده ، فيتركها وادعة موفورة .

والقاضى الجرجانى[1] لا يقصر السرقة على ما ظهر منها ودعا إلى نفسه ، بل يدعو الناقد إلى النظر فيما كمن ونضج عن صاحبه ، فلا يكتفى بتتبع الأبيات المتشابهة والمعانى المتناسخة لإظهار التماثل فى الألفاظ والظواهر دون أن يغوص

---

(١) الوساطة ٢٠١

إلى المقاصد والأغراض ، وإنما على الناقد أن يتأمل الأبيات حتى يعرف انتساب بعضها إلى بعض ، واتصال كل واحد منها بصاحبه ، مع افتنان مذاهبهما واختلاف مواقعهما .

فقول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بدّ يومًا أن تُردَّ الودائعْ

وقول الأفوه الأودى :

إنما نعمةُ قومٍ مُتعَةٌ ... وحياةُ المرءِ ثوبٌ مستعارْ

فبين البيتين تناسب ، وأن عند الأفوه ذكر الحياة ، وعند لبيد ذكر المال والولد ، وكان أحدهما جعل وديعة والآخر عارية .

وعلى الناقد البصير أن يعرف أن بيت المِنقرىّ :

وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نفسَه ... ففى صالحِ الأخلاقِ نفسَك فاجعلِ

هو من قول الآخر :

فنفسك أكرِمْها ، فإنك إن تَهُنْ ... عليك فلن تَلقى لها الدهرَ مُكرِمَا

وأن يدرك الناقد أن بيت المتنبى :

وفوارس يُحيى الحمامُ نفوسَها ... فكأنها ليستْ من الحَيَوانِ

منقول من قول زهير :

تراه إذا ما جئته متهلّلاً ... كأنك تُعطيه الذى أنتَ سائلُه

لأن زهيرًا جعله يسر بالبذل حتى كأنه أخذ ، وجعله المتنبى يسرع إلى القتل حتى كأنه حياة ، فالمعنيان واحد فى التحصيل .

فالأخذ قد يكون خفيًا كما يكون ظاهرًا ، ولا بد للناقد أن يتغلغل فى المقاصد والأغراض حتى يدرك الصلة بين المعانى ، والتناسب بين الأغراض فيرد هذا إلى ذلك ولا يخفى عليه شىء من تفنن الشعراء .

وينبه القاضى الجرجانى على تفنن الشعراء فى السـرقة فيلجـأون إلى طمـس معالم السرقة بتحويل معنى البيـت إلى معنـى آخـر ونقلـه مـن غـرض إلى غـرض ، فتنطلى هذه السرقة على الغرير ، وإن كانت لا تخفى على البصير فيقول : " وحتى لا يغرك من البيتين المتشابهين أن يكون أحدهما نسيبًا والآخر مديحًـا ، وأن يكـون هذا هجاء وذاك افتخارًا ، فإن الشاعر الحاذق إذا علق المعنى المختلس عدل به عـن نوعه وصنفه ، وعن وزنه ونظْمه ، وعـن رَوِيِّـه وقافيتـه ، فـإذا مـر بـالغبى الغـافل وجدهما أجنبيين متباعدين ، وإذا تأملهما الفطـن الذكـى عـرف قرابـة مـا بينهمـا والوصلة التى تجمعهما "(١) .

فكُثَيِّر ينسب بصاحبته فيقول :

أريـد لأنسـى ذِكْرَهـا فَكَأَنَّما ‌ ‌ ‌ ‌ تَمـثلُ لى ليلَـى بكـلِ سَـبيلِ

وأبو نواس يمدح الرشيد فيقول :

ملك تُصـوّر فى القلوب مثالُه ‌ ‌ ‌ ‌ فكأنه لم يخـل مـنه مَكـان

فالأول فى النسيب والثانى فى المديـح ، فيظـن الغـافل أن أحدهمـا مـن واد والآخر من واد ثان ، ولكن العالم لا يشك فى أن أحدهما من الآخر ، وأن الصلـة بين البيتين واضحة .

وقد يجنح الشاعر إلى قلب المعنى فى بيت سبقه إليه شاعر ، فيظن أن ساحته قد برئت من تهمة النقل ، ولكن الناقد البصير يقف له بالمرصـاد فـيرد إلى مصـدره الأول الذى أسعفه بالأخذ وأوحى إليه بالقلب .

يقول أبو تمام :

كـريمٌ متـى أمدحْـهُ أمدحْهَ والورَى ‌ ‌ ‌ ‌ معـى وإذا ما لُمْتُه لُمْـتُه وحْـدِى

فيعكس ابن أبى طاهر المعنى ويقول :

يشـترك الـعالَمُ فى ذمِّه ‌ ‌ ‌ ‌ لكننى أمدحُـهُ وحدى

(١) الوساطة/٢٠٤

ثم يعقب الجرجانى على ذلك فيقول(١) :

وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد الثقة .

وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضًا بالصناعة ، متدربًا بالنقد .

(والحاتمى ت ٣٨٨هـ) يتناول السرقات الشعرية وأنواعها ومراتبها فى الفصل الخامس فى كتابة (حلية المحاضرة فى صناعة الشعر) .

فيقول نقلاً عن النوفلى عن أبى طاهر أن(٢) " كلام العرب ملتبس بعضه ببعض ، وآخذ أوائله من أواخره ، والمبتدع منه والمخترع قليل إذا تصفحته وامتحنته ، والشاعر المحترس المتحفظ المطبوع بلاغة وشعرًا من المتقدمين والمتأخرين لا يسلم أن يكون كلامه آخذًا من كلام غيره ، وإن اجتهد فى الإحتراس ، وباعد فى المعنى ، وأقرب فى اللفظ ، وأفلت من شباك التداخل ، فيكف يكون ذلك مع التكلف المتصنع ، والمعتمد القاصد ..." .

ومن ظن أن كلامه لا يلتبس بغيره ، فقد كذب ظنه ، وفضحه امتحانه ، ... ولو نظر ناظر فى معانى الشعر والبلاغة حتى يخلص لكل شاعر وبليغ ما انفرد به من قول وتقدم فيه من معنى لم يشركه فيه أحد قبله ولا بعده ، لألفى ذلك قليلاً معدومًا ، ونزرًا محدودًا " .

ويقول فى موضع آخر(٣) : وقد أجمع علماء الشعر ونقاد الكلام ، وأرباب الصناعة أن من أخذ معنىً أو لفظًا أو جمعًا لهما ، وقع الحكم على أن المبتدع منهما أعلاها سنًا ، وأقدمها موتًا .وأن المتبع هو المتأخر منهما ، لاستقرار ذلك فى الأكثر . فإن جمعها عصر كان الأول منهما ما هو أكثر إحسانًا وتناسبًا فى الكلام .

فإن وقع أشكال فى ذلك ترك لهما، و لم يقض لأحدهما بالإختراع دون صاحبه

---

(١) الوساطة/٢٠٨

(٢) حلية المحاضرة : الحاتمى ٨٢/٢ ط العراق .

(٣) حلية المحاضرة : الحاتمى ٦٩/٢ ، ٧٠

فأما الحكم في الاحتذاء والاتباع ، فإن المحتذى إذا تناول المعنى فكشف قناعه ، وأرهف لفظه ، وأحسن التعبير عنه ، واختار الوزن الرشيق له حتى يكون بالأسماع أشد علقًا ، وفي النفوس ألطف مسلكًا ، كان أحق به ، ولا سيما إذا أخفى مسراه ... ويقع الحكم للشاعر بالبلاغ والإبانة ... وإن كان للسابق فضيلته التي لا يدفع عنها ، ولا بد من الاعتراف بها إذ كان مطلع كواكبها في آفاقها ، وقادح زنادها .

الاشتراك في اللفظ(١) :

يقول الحاتمي : وقد اعتبر قوم هذا سرقًا ، وليس بسرق ، وإنما هي ألفاظ مشتركة محصورة يضطر إلى المواردة فيها ، إذا اعتمد الشاعر القول في معناها .

ومن هذا الباب قول عنترة العبسيّ :

وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ ... عليها الأُسْد تَهْتصِر اهتِصارًا

فقال عمرو بن معدى كرب :

وخيلٍ قد دلفْت لها بخيلٍ ... تحيةٌ بينهم ضربٌ وجيعُ

وقالت الخنساء :

وخيلٍ قد دَلفْت لها بخيلٍ ... فدارتْ بين كَبشَيْها رَحَاها

وقال أعرابى :

وخيلٍ قد دلفْت لها بخيلٍ ... ترى فُرسانَهَا مثلَ الأسود

ثم يحلل لنا الحاتمي الأسباب التي تضطر الشاعر إلى أن يستعين بألفاظ غيره، فهو لا يجد بديلاً عنها في التعبير عن المعنى الذى قصده ، ولا يستطيع التحول عن هذه الألفاظ إلى ما هو أجلّ منها .

---

(١) الحلية ٢/٦٨

" فلو اجتهد هؤلاء الشعراء عند قصدهم الإخبار بما أخبروا به من هذا الوصف أن يوردوه بغير هذه العبارة وهذه العروض ما استطاعوا ؛ لأن اللفظ يضطرهم ، واعتماد العبارة الشريفة يقود أعّنتهم . فرب معان تختص بألفاظ شريفة لا يمكن تعدّيها إلى ما هو أشرف منها " .

وقد يتكافؤ المتبع والمبتدع فى إحسانها ، كما يتكافآن فى الإساءة فمن الأول (وهو التكافؤ فى الأحسان)(١) قول امرئ القيس :

فلو أنها نفسٌ تَموتُ جميعُها ... ولكنها نَفْسٌ تساقَطُ أنْفُسا

فقال عبده بن الطبيب :

فما كان قَيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحدٍ ... ولكنه بُنيان قومٍ تَهدّما

ومن ذلك قول الأعشى :

إذا حاجةٌ ولّتك لا تستطيعُها ... فخذْ طَرَفًا من غيرها حين تُسبق

فقال عمرو بن معدى كرب :

إذا لم تستطعْ شيئًا فدعْه ... وجاوزْه إلى ما تستطيع

فالتكافؤ فى هذين البيتين - سواء المتبع والمبتدع - تكافؤ لا يخفى على من يعرف أسرار الكلام .

ومن الثانى وهو التكافؤ فى الإساءة والتقصير(٢) .

والتهافت فى قبح الإتباع قول الشماخ فى مدح عرابة الأوس بقصيدة يخاطب فيها ناقته :

إذا بلّغتنى وحملتِ رحلى ... عرابةُ فاشرقى بدَمِ الوتينْ

ولما سمع الحلاج هذا البيت قال للشماخ : " بئس المجازاة جازيتها به " فلا أحد من علماء الشعر يحمد هذا المذهب من الشماخ ، ولا أجد له وجهًا مُرضيًا فى وصف النوق التى تمتطيها الشعراء إلى الممدوحين .

---

(١) الحلية ٧٣/٢

(٢) الحلية ٨٣/٢

ورغم هذه الإساءة فقد اقتفى ذو الرّمة مذهب الشماخ فى الإساءة فقال :

إذا ابنُ أبي موسى بلالاً بلغْتِه فقام بفأس بين وصليْك جازرُ

واحتذى حذوهما أبو دهبل الجمحى فقال :

يا ناق سِيرى ، وأشرِقى بدمٍ إذا جئت المغيرة

ويتحدث الحاتمى عن السرقات الخفية التى يلجأ إليها الشعراء الحاذقون وصناع الكلام بأن ينقلوا المعنى عن وجهه الذى وجه له ، من الوصف مثلاً إلى المدح أو قلب المعنى . إلى غير ذلك مما تحدث عنه القاضى الجرجانى .

ومن السرقات الخفية عند الحاتمى(١) هى ما يلجأ إليها الشعراء المطبوعون حين يخفون السرق ويلبسونه اعتمادًا على منثور الكلام دون منظومه ، واستراقًا للألفاظ الموجزة ، والفقر الشريفة ، والمواعظ الواقعة ، والخطب البارعة .

من ذلك ما روى عن النبى ﷺ : " اليد العليا خير من اليد السفلى " . فنظم أبو العتاهية بعض هذا اللفظ وأخلّ ببعضه فقال :

افرحْ بما تأتيه مِن طَيِّب إن يدَ المعْطِى هى العُلْيا

ومن ذلك قول عمر بن الخطاب- رضى الله عنه:" أنا لكم ذُبالة تضىء وتحترق".

فقال العباس بن الأحنف :

أحرَمُ منكم بما أقولُ وقد نالَ به العاشقون مَن عشِقوا

حتى كأنِّى ذُبالةٌ نُصِبتْ تُضىءُ للناسِ وهْى تحْترقُ

وقال عبد الله بن مسعود : " إن الرحل يظلمنى فأرحمه " .

فنظم محمود الوراق هذا المعنى ، وقال :

---

(١) الحلية ٢/٩٢

إنى شكرتُ لظلمى ظُلمى   وغفرتُ له ذاكَ عَلى عِلم
ما زال يظْلمنى وأرحَمُه   حتى رثيتُ لهُ من الظُلم

ومن السرقة الخفية ضروب دقيقة من الإشارة إلى المعنى ، وإخفاء السر تستدعى لطف النظر ودقة الملاحظة من الآخذ(١) .

فمن لطيف النظر والملاحظة قول أوس بن حجر :

سأجْزيك أو يجْزيك عنى مُثوّبٌ   وحسْبُك أن يُثنى عليك وتُحمدى

وهذا ينظر إليه قول الحطيئة نظرًا خفيًا حتى يكشف قناعه :

مَن يفعلِ الخير لا يُعدَمْ جوازيَه   لا يذهبُ العُرْف بين الله والناسِ

فقوله : " لا يذهب العرف بين الله والناس " هو قول أوس بن حجر :

" سأجزيك أو يجزيك عنى مثوّب " ؛ لأن المثوّب هو الله عز وجل وإن كان فى بيت الحطيئة زيادة بذكر الناس .

ومن لطيف النظر والملاحظة قول الشاعر :

إذا بلّ مِنْ داء به ، ظن أنه   نَجا ، وبه الداءُ الذى هُوَ قاتلُهْ

نظر إلى هذا المعنى ابن الرومى نظرًا خفيًا فقال :

نظرتْ فأقصدت الفؤادَ بسهمِها   ثم انثنتْ عنه فكادَ يَهيمُ
ويْلاه! إن نظرتْ ، وإن هى أعرضتْ   وقعُ السهام ونزْعُهنّ أليمُ

ويورد لنا الحاتمى أنواع السرقات ويبدأ بالإنتحال . فيقول(٢) أجمع العلماء بالشعر وأصحاب العربية أن امرأ القيس أول من بكى الديار ، ورثى الآثار وإذا تصفحت شعره استدللت ببعضه على بطلان هذا الإجماع ، ألا ترى إلى قوله :

عُوجَا على الطّلَلِ المُحيلِ لعلّنا   نبكى الديارَ كما بَكى ابنُ خُذام

---

(١) الحلية ٨٦/٢

(٢) الحلية ٣٠/٢ : ٣٢

وإذا سئل العلماء عما وصف به ابن خذام الديار ، أنشدوا أبياتًا من " قفا نبك " وذكروا أن امرأ القيس انتحلها فسارت له ، وخمل ذكر ابن خذام .

وحكى أبو عبيدة أن ابن خذام الكلبى كان يصحب امرئ القيس بن حجر الكندى ، أنه أول من وصف الديار .

كذلك بيت النابغة الذبيانى :

فلستُ بمستبقٍ أخًا لا تلُمّه   على شعَث ، أىُّ الرجالِ المهذّبِ

تزعم بنو سعد أن هذا البيت لرجل منهم .

وقد حكى أبو عبيدة أيضًا أن معظم الشعر الذى يرويه الناس لعنترة هو لهراش بن شداد .

ويذكر الحاتمى أن الفرزدق انتحل قول أخيه الأخطل بن غالب المجاشعى :

وركْبٍ كأن الريحَ تطلبُ عندهم   لها تِرةً من جَذْبها بالعَصائِبِ

ويذكر هذا البيت وسبعة أبيات أخرى بعده .

وكان الأخطل هذا شاعرًا طويل اللسان ، كثير المحاسن . فكسفه الفرزدق فانطوى فضله . وكان أبو عمرو بن العلاء لا يعبأ بشعر الفرزدق ، ويظن أنه ليس له ملكة رياضة الشعر ونحى عليه ، واستنشده يومًا فأنشده :

كم دون ميّةَ مِن مستعمل قذِفٍ   ومن فَلاةٍ بها تُستودَعُ العِيسُ

فقال : يا فرزدق أأنت قلت هذا ؟ فقال : أكتمها علىَّ! فوا الله لضوالُّ الشعر أحب إلىّ من ضوالّ الأهل .

ثم يتحدث الحاتمى عن الإغارة(١) .

---

(١) الحلية ٢/٣٩ - ٤١

وهو أن يسمع الشاعر المغلق الأبيات الرائعة ، ندرت لشاعر فى عصره وهى بشعره أليق وبكلامه أعلق ، فيغير عليها مصافحة ، ويستنزل شاعرها عنها قسرًا فيسلمها إليه اعتمادًا لسلمه ، ومراقبة لحربه ، وعجزًا عن مساجلته ... ومن ثم استمرت للفرزدق الإغارة على شعر جميل وغيره ، فإنه عاور جماعة من الشعراء فى عصره على قطع من أشعارهم جرت فى أساليب كلامه ... فسلموها له عنوة ، وصفحوا عنها نكولاً عنه .

ويضرب الأمثلة على ذلك . فقد وقف الفرزدق يومًا على الشمردل اليربوعى وهو ينشد لنفسه :

وما بين من لم يُعط سْمعًا وطاعَةً وبين تميم غير حزّ الغَلاصِم

فقال الفرزدق : " لتتركنّه ، أو لتتركنّ عرضك " . فقال له الشمردل : " خذه ، لا بارك الله لك فيه " . فهو فى قصيدته التى أولها .

تَحنُّ إلى زوْر اليمامهِ ناقتى حنين عَجولٍ تَبتغى البوَّ رائِم

التى يهجو فيها جريرًا .

ومن ذلك أيضًا أن موسى شهوات أنشد قصيدة على الراء أمام الأحوص ، أحسن فيها حتى مر بهذا البيت :

وكذاك الزمانُ يذهبُ بالنّـ ـاس ، وتبقَى الديارُ والآثار

فقال الأحوص على رويها قصيدة أدخل فيها هذا البيت ، فقال موسى شهوات:

" ما رأيت مثلك يا أحوص! أنشدتك قصيدة لى ، فذهب بأفضل بيت فيها ، فقال الأحوص : " والله ما هو لى ولا لك ، وما هو إلا للبيد حيث يقول :

وكذاك الزمانُ يذهب بالنـ ـاس وتبقَى الديارُ والآثار

فعفا أخرُ الزمان عليهم فعلى آخر الزمان الديار

وينتقل الحاتمى إلى التوارد(١) :

وهو أن يتفق الشاعران فى المعنى ويتواردا فى اللفظ دون أن يلقى أحد منهما صاحبه ولا سمع بشعره ، ويعلل أبو عمرو بن العلاء هذه الظاهرة فيقول : " تلك عقول رجال توافت على ألسنتها " .

فامرؤ القيس يقول :

وكلُّ ذى إبلٍ مودٍ فتاركُها   وكلُّ ذى سلَب لا بدَّ مسلوب

وعبيد بن الأبرص أيضًا يقول :

وكل ذى إبل مُودٍ يورّثها   وكل ذى سَلب لا بد مسلوب

وعبيد وامرؤ القيس كانا فى زمن واحد .

فأما قول امرئ القيس :

وقد طوفتُ بالآفاق حتى   رضيتُ من الغنميةِ بالإيابِ

وقول عبيد بن الأبرص مخاطبًا لامرئ القيس فى شعره :

ولو لاقيتُ غلباءَ بن حزمٍ   رضيتُ من الغنيمة بالإياب

فأظن عبيدًا ردَد هذا المصراع ، تعريضًا بقوله ، لا على جهة السرقة .

والاجتلاب(٢) : ليس عيبًا ولا يعد من السرقات .

وهو أن يأخذ الشاعر البيت فيدخله فى شعره على طريق التمثيل وقد تفعل العرب ذلك ، فلا يريدون السرق .

ويروى الرواة عن الأصمعى أنه قال : ربما احتلب الشاعر البيت ليس له ، فاجتذبه من غيره ، فيورده شعره على طريق التمثيل به ، لا على طريق السرق له كما قال النابغة الذبيانى :

تمزّزتها والديكُ يدْعو صَباحَه   إذا ما بنو نعْش دنَوا فتصوّبوا

---

(١) الحلية ٢/٤٥ : ٤٦

(٢) الحلية ٢/٥٨ : ٦٠

فاجتلب الفـرزدق هـذا البيـت ، و لم يسلبه ، ولا حـاول أن يغـير عليـه ، وإن كانت الغارة عادته - وإنما أورده اجتلابًـا واستلحاقًا ، وكـان أبـو عمـر ابـن العلاء لا يرى ذلك سرقًا .

وقد يجلب الشاعر البيت أو البيتين من شعر شاعر ، أو المعنى والمعنيـين ، إذا كان الشاعر مخاطبًا له ، وكان هو مجيبًا عن مخاطبته ، وكذلك يلقى فى شعر جرير والفرزدق ، ولا نرى ذلك سرقًا .

كقول الفرزدق :

إنّ الذى سمكَ السماءَ بنى لنا   بيتـًـا دعائمُهُ أعـزُّ وأطُـولُ

فقال جرير رادًا عليه :

إن الذى سمَك السماءَ بنى لنا   عَـزا علاك فمالَه من مَنْقِـلِ

الإهتدام(١) : وهو افتعال من الهدم ، فكأنه هدم البيت من الشعر ، تشبيهًا بهدم البيت ، البناء ؛ لأن البيت من الشعر يسمى بيتًا لِإشتماله على الحروف كمـا يشتمل البيت على ما فيه .

ومن ذلك قول كثّير :

قامت تودعُنا والعـينُ سـاجمة   كأن إنسانَها فى لُجّـة غَـرِقُ
ثـم استدار على أرجاء مُقْلتها   مُبادرًا خلساتِ الطرْف يَستَبق
كأنه حـين مـار المأقيـان بـه   درٌ تسـلل من أسـلاكِه نَسـقُ

فاهتدم فيها قول جميل :

قامت تودعنا والعـينُ سـاجمة   إنسانها بفَضيض الدمع مُكْتَحِـل
ثم استدار على حوارءَ ساجيةٍ   حتى تبـادرَ دمعهُـا الهمـل
كأنـه حـين مـار المأقبـان به   درّ تقطعَ منه السلْك منفصـل

---

(١) الحلية ٢/٦٤ - ٦٥

التلفيق والترقيع : وهو ترقيع الألفاظ ، وتلفيقها ، واجتذاب الكلام من أبيات ، حتى ينظم بيتًا . فمن التلفيق قول يزيد بن الطثرية :

إذا ما رآنى مُقبلاً غض طرْفَه كأن شعاعَ الشمسِ دُونى يُقابلُهْ

فقوله : " إذا ما رآونى مقبلاً " من قول جميل :

إذا ما رأونى طالعًا من ثنيّة يقولون: من هذا؟ وقد عرفونى

وقوله " غضّ طرفه " من قول جرير :

فغضّ الطرفَ إنك من نُمير فلا كعْبًا بلغت ولا كِلابا

وقوله " كأن شعاع الشمس دونى تقابله " فمن قول عنترة بن عكبرة الطائى :

إذا أبصرتْنى أعرضتْ عنى كأن الشمس مِن قبلى تَدور

(٣)

وابن رشيق (٤٥٦ هـ) تناول السرقات الشعرية فى الجزء الثانى من كتابه (العمدة) وهو فى حديثه عن السرقات لا يخرج بحال عما سبقه إليه الحاتمى فى (حلية المحاضرة) ، والجرجانى فى (الوساطة) .

فالسرقة عنده كما عند الحاتى باب متسع جدًا لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة إلا على البصير الحاذق بالصناعة ، وأخرر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل(١) .

وسائر الألفاظ المبتذلة لا يسمى تناولها سرقة ، لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر ، فهى مباحة غير محظورة ، إلا أن تدخلها استعارة ، أو تصحبها قرينة تحدث فيها معنى ، أو تفيد فائدة ، فهناك يتميز الناس ويسقط اسم الاشتراك . وقد نص عليه القاضى الجرجانى أنه من المنقول المتداول المبتذل .

(١) العمدة - ابن رشيق ٢/٢٨٠ ط محى الدين .

أما الإشتراك فى المعانى فنوعان(١) :

أحدهما : إذا اختلفت العبارة عنهمـا وتبـاعد اللفظـان ، فذلـك هـو الجيـد الحسن كقول عبدة بن الطبيب يصف ثورًا وحشيًا :

مُجْتابُ نِصْعٍ جديدٍ فوق نُقْبته   وفى القوائم من خال سـواويلُ

وقال الطرمّاح يصف ظليمًا :

مُجتاب شملة بُرْجـدٍ لسَـــراتِهِ   قدرًا فأسلم ما ســـواه البُرجُد

فوصَفَ الأول بياض الثور وسواد قوائمه وتخطيطها ، فشبه ظهره كأن عليه نصعًا جديدًا (وهو الثوب الأبيض) ، وشبه ما فى قوائمه من الســواد والتخطيط بسراويل من الخال ، وهو ضرب من الوشى .

وقال الثانى : أنه مجتاب شملة برجـد ، يريـد مـا علـى الظليـم مـن قرونـه ، والبرجد : كساء أسود مخمل ، وجعل المشلة قدرًا لسراته دون رجليه وعنقه ، فدل على بياضهن .

والنوع الثانى : على ضربين :

أحدهما: ما يوجد فى الطباع من تشبيه الجاهل بالحمار، والحسن بالقمر، والشجاع بالأسد وما شابه ذلك ؛ لأن الناس كلهم فيه سواء ، وهو متأصل فى طباعهم .

والثانى : ما كان مخترعًا ثم كـثر حتى استوى فيـه النـاس ، وتواطـأ عليـه الشعراء آخراً من أول ، كتشبيه الخد بالورد ، والقد بالغصن ، والعين بعين المهـا ، والعنق بعنق الظبى وهـذا ليـس مـن بـاب السـرقة إلا إذا ولـد فيـه الشـاعر زيـادة تسوجب انفراده به .

وما ذكره ابن رشيق هو ترديد لكلام القاضى الجرجانى(٢) .

---

(١) العمدة ٢/٩٨ : ١٠٠

(٢) الوساطة /١٨٥

ويوضح ابن رشيق أن السرق إنما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، لا فى المعانى المشتركة التى هى جارية فى عاداتهم ، ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع به الظنة عن أن يقال إنه أخذه من غيره .

ويصف الشاعر السارق(١) بالبلادة والعجز ، إذا اتكل على السرقة ، كما يصفه بالجهل إذا ترك كل معنى سبق إليه ، والمختار عنده هو أوسط الحالات .

ويكون المتبع أولى بالمعنى من مبتدعه(٢) ، وإذا تناول المعنى فأجاده ، بأن يختصره إذا كان طويلاً ، أو يبسطه إن كان كزًا ، أو يبينه إن كان غامضًا ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافًا ، وكذلك إذا قلبه ، أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر .

أما إن ساوى المتبع المبتدع فله فضيلة حسن الإقتداء لا غيرها ، فإن قصّر كان ذلك دليلاً على سوء طبعه وسقوطه همته ، وضعف قدرته .

ثم يتحدث عن أنواع السرقات من اجتلاب وانتحال وإغارة وغصْب واهتدام وعكس مما سبقه إليه الحاتمى .

ويعتبر من أجل السرقات نظم النثر وحل الشعر ، وليس على سارقه جناح عند الحذاق من النقاد .

(٤)

وعبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) يفرد فصلاً عن الإتفاق فى الأخذ والسرقة فى كتابه (أسرار البلاغة) ويستهل بقوله :

اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا لم يخل ذلك فى أن يكون :

١ - الإتفاق فى الغرض على العموم .

---

(١) العمدة ٢/٢٨١

(٢) العمدة ٢/٢٩٠

٢ - الإتفاق فى وجه الدلالة على الغرض .

والإشتراك فى الغرض على العموم بأن يقصد كل واحد منهما وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء ، أو حسن الوجه والهباء - والإشتراك فى وجه الدلالة على الغرض ، بأن يذكر مايستدل به على إثبات الشجاعة والسخاء مثلاً " .

إما بالتشبيه كأن يشبه الممدوح بالأسد والبحر فى الشجاعة والسخاء .

وإما بذكر هيئات لا تكون إلا وصفًا للمدوح دون غيره من الناس كوصف الرجل فى حال الحرب بالإبتسال ، وسكون الجوارح ، وقلة الفكر ، أووصفه بالتهلل عند ورود العفاة والإرتياح لرؤية المحتاجين .

والإتفاق فى عموم الغرض لا يكون الإشتراك فيه داخلاً فى الأخذ والسرقة ، والإتفاق فى وجه الدلالة على الغرض إذا اشترك الناس فى معرفته كان حكمه حكم الإتفاق فى عموم الغرض ، ولا يدخل فى باب السرقات كالتشبيه بالأسد فى الشجاعة وبالبحر فى السخاء ؛ لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولا يحتاج فى العلم به إلى روية واستنباط أو تدبر وتأمل ، وإنما هو فى حكم الغرائز المركوزة فى النفوس .

أما إذا كان الإتفاق فى وجه الدلالة على الغرض لا ينتهى إليه المتكلم إلا بعد النظر والتدبر ، ولا يناله إلا بالطلب والإجتهاد وتجشم الصعود إليه ، إذا كان هذا شأنه ، فهو الذى يجوز فيه الإختصاص والسبق والتقدم ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وإن أحدهما زاد على الأول أو نقص عنه ، أو ارتقى إلى غاية أبعد من غايته أو انحط إلى منزلة هى دون منزلته .

ثم يعود عبد القاهر إلى التفصيل فى النوع الأول وهو الإتفاق فى عموم الغرض فيقول :

واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى والذى قلت إن التفاضل لا يدخله ، إنما يكون كذلك إذا كان صريحًا لم تلحقه صنعة أو لم يعمل فيه

نقش ، فأما إذا ركب عليه معنى ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والرمز بحيث تتغير طريقته وتستأنف صورته ، صار من قبيل الخاص الذى يتوصل إليه بالتدبر والتأمل ،كقولهم وهم يريدون التشبيه " سلبن الظباء العيون" .وإن السحاب يستحيى إذا نظر إلى نداك .

كقول عبيد الراعى :

سلبن ظباءَ ذى نفرٍ طُلاها ونُجْل الأعين البقر الصوارا

وكقول أبى نواس :

إن السحاب لتستحيى إذا نظرتْ إلى نَداك فقاستْه بما فيها

فهذا كله فى أصله ومغزاه وحقيقة معناه ، تشبيه . ولكنه كنى لك عنه وسلك مذهب التخييل فيه ، فصار لذلك غريب الشكل بديع الفن ، منيع الجانب ، وإذا أمعنت النظر ، وجدته ليس من قبيل الظاهر المعروف بل هو من الخصوصيات التى تنفى الاشتراك .

فقد أوهمك فى بيت الراعى أن ثمة سرقة ، وأن العيون منقولة إليها من الظباء وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : إن عيونها كعيون الظباء فى الحسن وفتور النظر .

وكذلك يوهمك أبو نواس بقوله : " إن السحاب لتستحيى " أن السحاب حى يعرف ويعقل ، وأنه يقيس فيضه بفيض كف الممدوح فيخزى ويخجل ، فالاحتفال والصنعة إنما هى فى التصويرالذى يروق السامعين ويروعهم ويدخل النفس فى حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، هذا التصوير الذى يكسب الدنى رفعة ، والغامض القدر ناهة . ويؤكد ذلك بضرب الأمثلة من الشعر الذى يرفع الدنىّ ويجعل من الشىء المستنكر حلاوة وسحرًا .

فالقبيلة التى كانت تعير بأنف الناقة - صار هذا اللقب موضع فخر لهم حين قال فيهم الحطيئة :

قومٌ هُم الأنفُ والأذْناب غيرُهُم ومن يُسوِّى بأنفِ الناقةِ الذّنبَا

وكذلك ما يعرف من حالة الصلب الذى يملأ النفوس إنكارًا ، وتنزعج له القول استفظاعًا ، ويغرى الألسنة بالإستعاذة من سوء القضاء ، حين تتقلب هذه الحالة على يد الشاعر إلى خلافها ، وما يصنع فيه من السحر بتأويلها فقول :

علوٌّ فى الحياة وفى الممات بحقٍّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبًا وكلهم قيام للصلات
هددت يديك نحوهم احتفاء كمدّها إليهم بالهبات
لعظَمِك فى النفوس تبيت تُرعى بحراس وحفّاظ ثقات
وتُشعلُ عندك النيرانُ ليلاً كذلك كنت أيام الحيات

(٥)

ونرى محمد بن على الجرجانى الذى صنف كتابه (الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة) سنة ٧٢٩ هـ يتناول فى خاتمة الكتاب السرقات الشعرية ويقسمها إلى ثلاثة أقسام(١) :

الإنتحال ، والإغارة ، والإلمام .

الأول : الإنتحال : ويسمى فسخًا . وهو سرقة المعنى بألفاظه من غير تغيير ، أو بعض تغيير ، وهو مذموم جدًا .

فما كان بدون تغيير ، هو البيت الذى وجد فى قصيدتى زهير وأوس :

إذا أنتَ لم تُعرِض عن الجهلِ والخنَا أصبتَ حليمًا ، أو أصابك جاهلُ

---

(١) الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة/٣٠٦ (ط نهضة مصر) .

وما كان ببعض تغيير كقول الأبيرد اليربوعيّ :

فتىً يشـترى حسنَ الثناء بمالِه   إذا السـنةُ الشـهباءُ أعْـوزها القطْـرُ

وفى شعر أبى نواس :

فتى يشـترى حسـن الثناء بماله   ويعلـمُ أن الدائـرات تـدورُ

الثانى :الإغارة ويسمى : مسخًا ، وهـو أخـذ المعنـى بتغيير نظمـه ، وهـو محمود إن اختص بفضيلة كحسن السبك ، أو الاختصار ، أو الإيضاح ، أو زيادى معنى . كقول بشار :

مَن راقبَ الناس لم يظفـرْ بحاجتـه   وفازَ بالطيبات الفاتك اللّهـجُ

وقول سلم الخاسر :

من راقب النـاس مـات همّـًا   وفـازَ باللـذةِ الجَسـورُ

فبيت سلم أجود سبكًا وأخصر .

وإن كان أدون فى البلاغة فهو مردود ، كقول أبى الطيب :

أعْـدى الزمانَ سـخاؤهُ فسـخا بـه   ولقـد يـكونُ به الزمـانُ بخيـلاً

أخذه من أبى تمام :

هيهـات ، لا يـأتى الزمـانُ بمثله   إن الزمـان بمثْـلِه لبخيـلُ

فأفسد أبو الطيب بيته بلفظتى " وقد ، ويكون " فـإن " قـد " فـى المضـارع للتقليل فتفيد بالمفهوم على عدم بخل الزمان بمثله .

" ويكون " للزمان المستقبل ، فتفيد بالمفهوم على عدم بخله فى الماضى .

الثالث : الإلمام ، ويسمى سلخًا .

وهو أخذ المعنى من غير التعرض للفظ ، كقول البحترى :

تصـدّ حيـاء أن تـراك بـأوجـهٍ   أتى الذنب عاصيها فَلِيمَ مُطيعُهـا

وقول أبى الطيب :

وجُرم جَرَّه سفهاء قَوْم ... وَحلّ بغير جارِمِه العذابُ

وهو أجود من الأول بحسن السبك كأنه اقتبسه من قوله تعالى :

﴿ ... أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ ... ﴾ الأعراف ١٥٥ .

وبعد أن يفرغ من ذكر السرقات الشعرية ، يشرع فى ذكر ما يشبه السرقة ، لخفاء المعنى(١) ويقسمه إلى عدة أقسام :

الأول : التشابه بين المعنيين ، كقول الطرماح :

لقد زادنى حبًا لنفسى أننى ... بغيضٌ إلى ما كلِ امرئ غير طائلِ

وقول أبى الطيب :

وإذا أتتك مذمتى من ناقصٍ ... فَهْى الشهادةُ لى بأنّى كاملُ

والثانى : النقل : رأى نقل المعنى من شيء إلى آخر ،كقول البحترى :

سُلبوا وأشرقَتْ الدماءُ عليهمُ ... محمرَّة ، فكأنُهمْ لم يُسلَبوا

وقول أبى الطيب :

يبس النجيعُ عليه وهْوَ مُجرَّدٌ ... عَنْ غِمده ، فكأنما هو مُغْمَدُ

فإنه نقل المعنى من الإنسان إلى السيف .

الثالث : أن يكون المعنى الثانى أكثر مبالغة من الأول ، كقول جرير :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ ... وجدت الناس كلهم غِضَابَا

وقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكرٍ ... أن تجمعَ العالَمَ فى واحدِ

وهذا أكثر مبالغة من بيت جرير .

---

(١) الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة /٣١٢

الرابع : قلب المعنى إلى نقيضه ، كقول أبى الشيص :

أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكرِكِ ، فليَلُمنى اللُّوَّم

فقلب أبو الطيب هذا المعنى إلى نقيضه فقال :

أأحبّهُ وأحبُّ فيه مَلامةً ؟ ... إن الملامةَ فيه مِن أعدائهِ

الخامس : التحسين : وهو أن يأخذ بعض المعنى ويضيف إليه ما يحسنه كقول الأفوه الأودى :

وترى الطير على آثارِنا ... رأىَ عينٍ ثقةً أنْ ستُمارْ

وقول أبى تمام :

وقد ظللت عِقْبانُ أعْلامه ضُحىً ... بعقبان طيرٍ فى الدماء نواهلِ
أقامت مع الرايات حتى كأنها ... من الجيشِ ، إلا أنها لم تقاتلِ

أخذ بعض معنى الأفوه ، وزاد عليه زيادات حسنة لا تخفى .

(٦)

والعصام صاحب الأطول (ت ٩٥١هـ)(١) يسير على منوال الخطيب القزوينى (ت ٧٣٩هـ) ولا يعدو أن يكون شارحًا لتلخيص المفتاح . وإن كان يتميز بنظراته الثاقبة ، وتحليلاته العميقة . وهو فى معالجته لسرقات يتبع خطوات الخطيب القزوينى سواء فى ترتيبه أو فى شواهده .

وصاحب الأطول يرى أن السرقة تجرى فى الشعر وفى غير الشعر أيضًا ، وأن السرقة والأخذ لفظان مترادفان بمعنى واحد .

والسرقة تكون ظاهرة وغير ظاهرة .

فالسرقة الظاهرة تكون بأخذ اللفظ ، أو أخذ المعنى ، أو كليهما معًا .

---

(١) الأطول ٢/٢٤٠ - العصام - ط ١٢٨٤هـ .

فإذا أخذ المعنى مع اللفظ كله من غير تغيير لنظمه فهى سرقة محضة وهو النسخ المذموم حتى وإن بدل الكلمات كلها أو بعضها بما يرادفها ، كأن يأتى شاعر إلى قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحلْ لبغْيتها   واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

فقال :

ذرِ المآثر لا تذهب لمطلبها   واجلس فإنك أنت الآكل اللابس

أو بما يقابلها : كأن يقول فى بيت حسان :

بيضُ الوجوه كريمةٌ أنسابُهم   شمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأوَّل

سود الوجوه لئيمةٌ أحسابُهم   فُطْس الأنوفِ من الطرازِ الأول

وهذا القلب من النوع غير الظاهر .

* * *

أما إذا لجأ الشاعر إلى تغيير النظم :

فإن كان الثانى أبلغ من الأول لفضيلة فيه ؛ كاشتماله على محسن ذاتى فهو ممدوح ، كقول الشاعر :

خلقْنا لهم فى كل عين وحاجبٍ   بُسْمر القَنا والبِيض عينًا وحاجبًا

وقول ابن نُباتة :

خلَقْنا بأطراف القَنا فى ظهورِهم   عيونًا لها وقْع السيوفِ حواجبُ

فبيت ابن نباتة أبلغ ، لاختصاصه بزيادة معنى : وهو الإشارة إلى انهزامهم، حيث وقع الطعن والضرب على ظهورهم .

وإن كان الثانى دون الأول فهو مذموم ؛ وذلك إذا كان الأول يتمتع بفضيلة عرى منها الثانى .

وإن كان الثانى مثل الأول فى الحسن ، فهو أبعد عن الذم .

وإن أخذ الثانى من الأول المعنى وحده .

فإن كان أبلغ من الأول فهو ممدوح .

وإن كان دونه فهو مذموم .

وإن كان مثله فهو أبعد عن الذم .

* * *

هذا فيما يتعلق بالسرقة الظاهرة .

أما السرقة غير الظاهرة ، فهى ما سبق أن ذكره الجرجانى فى الإشارات وأطلق عليها " ما يشبه السرقة " وذكر لها ألوانًا من : تشابه المعنيين أو نقل المعنى إلى معنى آخر ، أو إن يكون الثانى أشمل من الأول وأكثر مبالغة منه ، أو قلب المعنى إلى نقيضه ، أو أخذ بعض المعنى وإضافة ما يحسنه إليه ، وقد ذكرنا الأمثلة على كل ذلك فى الحديث عن صاحب الإشارات والتنبيهات .

ويردد صاحب (الأطول) فى نهاية الحديث عن السرقات عبارة الخطيب هذا كله إنما يكون إذا علم أن الثانى أخذ من الأول ، بأن يعلم أنه كان يحفظ قول الأول حين نظم ، أو بأن يخبر هو عن نفسه أنه أخذه منه ، لجواز أن يكون الاتفاق من قبيل توارد الخواطر من غير قصد إلى الأخذ ، وتوارد الخواطر أكثر من أن يحصى فى المعانى ، وإن كان توارد الشعر بعينه أو بأكثر ألفاظه قليلاً .

فإذا لم يعلم أنه كان يحفظ قول الأول ، أو لم يخبر هو نفسه بالأخذ .

قيل : قالوا فلان كذا ، وقد سبقه إليه فلان ، فقال : كذا ، ليغتنم الناقد بذلك فضيلة الصدق ، ويسلم من دعوى العلم بالغيب ، ومن نسبة الغير إلى النقض .

* * *

فهارس الكتاب

فهرس الآيات القرآنية

الآية	الصفحة	الآية	الصفحة	الآية	الصفحة
يوسف		**الإسراء**		**الحج**	
٣١	٩٩	٢١	١٤٠	٢	٨٣
٣٨	١٠٥	٢٣	١٠٨	**المؤمنون**	
٤٢	٦٦	٢٩	٧١	١٢ ، ١٣	٦٩
٨٤	١٣٦	**الكهف**		**النور**	
٩٥	٦٥	١٨	٤٥	٣٥	٥٥ ، ٤٨
١٠٧	١٣٧	٢٩	٩٧	٤٣	٨٥ ، ١٢٥
الرعد		٤٧	٧٤	٤٤	١٢٥
٤	٨٩	١٠٤	١٣٠	**الفرقان**	
١٠	٤٥ ، ٨٦	**مريم**		٥٢	٧٤
١١	٩٨	٦	٧٩	**الشعراء**	
١٢	٤٨ ، ٧٥	٦٤	٧٥	٧٨ ، ٨٣	٥٧
٣٨ ، ٣٩	٦٩	٧٢	١٠٨	٧٩	١٣٠
إبراهيم		**طه**		١٦٨	١٤٠
٤٦	٦٨	٥	٦٨	**النمل**	
النحل		١٧	٣٧	٢٢	١٣٥
٣٨	٨٨	٩٤	١٣٣	٣٨	٨٨
٤٤	١٣٦	٩٧	١٣٢	٤٤	١٣٦
٥٨	٤٨	١١٨-١١٩	٥٢	**القصص**	
٦٩	١٣٢	**الأنبياء**		٤٥	١٣٢
٩٠	٤٩	٣٣	١٣٦	٧٣	٤٨
		٦٢	٩٩		

فهرس الأحاديث

فهرس الأمثال

فهرس الأبيات الشعرية

فهرس الأعلام

المراجع

١ - أثر النحاة فى البحث البلاغى : عبد القادر حسين - نهضة مصر
٢ - أخبار أبى تمام : الصولى - ١٩٧٣
٣ - الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة : القاضى الجرجانى - نهضة مصر
٤ - الخصائص : ابن جنى - دار الكتب
٥ - أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى - الاستقامة
٦ - الأطول : العصام - إيران
٧ - إعجاز القرآن : الباقلانى - دار المعارف
٨ - أمالى المرتضى : الشريف المرتضى - عيسى الحلبى
٩ - الإيضاح : الخطيب ، القزوينى - بيروت
١٠ - بديع القرآن : ابن أبى الأصبع المصرى - نهضة مصر
١١ - البرهان فى علوم القرآن : الزركشى - عيسى الحلبى
١٢ - البلاغة تطور وتاريخ : شوقى ضيف دار المعارف
١٣ - البيان والتبيين : الجاحظ - الخانجى
١٤ - تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة - عيسى الحلبى
١٥ - تجديد الفكر العربى : زكى نجيب محمود ، محيى الدين
١٦ - جواهر الألفاظ : قدامه بن جعفر ، محيى الدين
١٧ - خزانة الأدب : ابن حجة الحموى - ط أولى
١٨ - دراسات فى تاريخ الأدب : كراتشكوفسكى - ١٩٦٥
١٩ - شروح التلخيص : القزوينى وآخرين - عيسى الحلبى
٢٠ - الشعر المصرى بعد شوقى : محمد مندور - نهضة مصر

٢١ - الصناعتين : أبو هلال العسكرى - عيسى الحلبى

٢٢ - الطراز : العلوى - المقتطف

٢٣ - أبو الطيب المتنبى وماله وما عليه : الثعالبى - ١٩١٥

٢٤ - عروس الأفراح : السبكى - عيسى الحلبى

٢٥ - عقود الجمان : السيوطى - مصطفى الحلبى

٢٦ - فن القول : أمين الخولى - دار الفكر العربى

٢٧ - فى أصول الأدب : الزيات - الثالثة

٢٨ - كتاب البديع : ابن المعتز - دار العهد الجديد

٢٩ - الكشاف : الزمخشرى - الاستقامة

٣٠ - المطول : التفتازانى - ١٣٣٠هـ

٣١ - مقدمة بديع القرآن : حفنى شرف - نهضة مصر

٣٢ - مقدمة شرح ديوان الحماسة : المرزوقى - تونس

٣٣ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء :- حازم القرطاجنى - تونس

٣٤ - الموازنة : الآمدى - دار المعارف

٣٥ - النقد والنقاد المعاصرون : محمد مندور - نهضة مصر

٣٦ - نقد الشعر : قدامة بن جعفر - الخانجى

٣٧ - النكت فى إعجاز القرآن : الرمانى - دار المعارف

٣٨ - نهاية الأرب : النويرى - دار الكتب

٣٩ - الوساطة بين المتنبى وخصومه : القاضى الجرجانى - عيسى الحلبى ، القاهرة

المحتويات

كتب للمؤلف

١ - أثر النحاة فى البحث البلاغى - قطر - ط٢ .
٢ - القرآن إعجازه وبلاغته - النموذجية - ط٢ .
٣ - فن البلاغة - بيروت - ط٤ .
٤ - فن البديع - دار الشروق - ط١ .
٥ - القرآن والصورة البيانية - المنار - ط٤ .
٦ - من بلاغة النبوة - مؤسسة الخليج - ط٤ .
٧ - الإكسير فى علم التفسير - بيروت - ط٢ .
٨ - أصول البلاغة - الدوحة - ط٢ .
٩ - المختصر فى تاريخ البلاغة - دار الشروق - ط١ .
١٠ - الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة - الآداب - ط٢ .
١١ - مقدمة فى شرح نهج البلاغة - دار الشروق - ط١ .
١٢ - من علوم القرآن وتحليل نصوصه - الدوحة - ط١ .
١٣ - نصوص من القرآن الكريم - الدوحة - ط١ .
١٤ - مختارات من الشعر العباسى - القاهرة - ط١ .
١٥ - تيسير نهاية الإيجاز فى دراسة الإعجاز - بيروت - ط١ .
١٦ - خلاصة المعانى - السعودية - ط١ .
١٧ - قصار السور " نظرات وتأملات " - مؤسسة الخليج - ط١ .
١٨ - جزء الذاريات أضواء بلاغية - المنار - ط١ .
١٩ - جزء تبارك أضواء بلاغية - السعودية - ط١ .
٢٠ - جزء قد سمع أضواء بلاغية - السعودية - ط١ .
٢١ - البلاغية العالية " مقدمة " - الآداب - ط٢ .
٢٢ - الإيضاح للقزوينى - الآداب - ط١ .
٢٣ - التفسير الوسيط - مؤسسة الخليج العربى - تحت الطبع .
٢٤ - دراما الحسد والغريزة - مؤسسة الخليج العربى .
٢٥ - النفس القلقة المطمئنة - مؤسسة الخليج .
٢٦ - قصص الأنبياء عليهم سلام : نوح - إبراهيم - عيسى - مؤسسة الخليج .